بسم الله الرحمن الرحيم

منظومة

الزينة والجمال

(فى الأدب)

للفقير إلى الله

أبى محمد معاذ أحمد عمر محمد

الشهير بإبراهيم أحمد عمر صه

الأفريقى الفلاني المالى

كان الله له وللمسلمين

Scanné avec CamScanner

إهـــداء

أهدى هذه المنظومة المباركة إلى أخي الأكبر ومحـــبي الأطهـــر الشيخ الفاضل والأستاذ الجليل / أبي المحامد جمـــال الـــدين مسعد محمد الدرينى قائلاً له :

وإذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد وأنت ذاك الواحد!

سائلاً الله سبحانه وتعالى أن يبارك فيه وفى أهله وأزواجه وذريته ويقينا وإياهم من كل سوء ويظلنا جميعاً بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله

Scanné avec CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

مقدمة

آذنتني بوصلها أسماءُ ... أيّ أرض جادت عليها السماءُ

بعد عهد لنا بأروقة الأز ... هر فيها غدوّنا والمساءُ

رب حب أضاعه عدم القر ... ب وعشقٍ أبان عنه اللقاء

أبذكر الخصال أوفيك مدحاً ... أم بوصف الجمال يا أسماءُ

هي أخت كريمة ذات دينٍ ... زانها العلم والتقى والحياءُ

يتجلى من وجهها طلعة البد ... ر وتخفى في فرعها الظلماءُ

ما أرى الشمس حين تشرق إلا ... منك يأتي لها السنا والسناءُ

أين منك النسيم في بسمات ... أين منك العطور حيث البهاءُ

حاكيات لك الورود وغرقى ... في نداك البحار والأنواءُ

ما لهند ذكاؤها أو لدعد ... جِدّها أو لجِيدِها شيماءُ

دمية من دمى الجمال وريمٌ ... شاكلت عينها المها والظباءُ

عقد درّ تزينه خرزات ... رُكّبت فيه ، لؤلؤٌ وصفاءُ

من لهاوٍ بحصر عدّ نجومٍ ... وهو يعيه نورها والضياءُ

رب إن الهدى هداك وآيا ... تك نور تهدى بها من تشاءُ

صانك الله ما يسوء وأرضى ... بك بعلاً وطاب فيك الثناءُ

هاك مني نصائحاً نسجتها ... لك مني محبة ووفاءُ

الباب الأول

فى جمال الله سبحانه وتعالى

زينة الدين آمنوا يا عبادي ... واعملوا الخيرَ ، ليس فيه مراءُ

لم يكن قطّ في الإله ضميرٌ ... غير هذا وما عداه هراءُ

Scanné avec CamScanner

إنمـــا الـــرأى مخطـــئ ومـــصيبٌ ... ولـــدى الغيـــب تكثـــر الآراءُ
لـــيس للـــرأى في الإلـــه نـــصيبٌ ... إنمـــا الـــرأى واهـــم خطّـــاءُ
فاعبـــد الله مؤمنـــاً مطمئنـــاً ... ودع الـــشك فـــالظنون عنـــاءُ
لـــيس لله يـــا حبـــيبى صـــفاتٌ ... يتمـــارى فى شـــأنها الخـــصماءُ
إنمـــا الحـــق مـــا أتـــى في كتـــاب ... أن لله ربنـــا الأسمـــاءُ
دون إنكـــار مـــا دعوهـــا صـــفاتٍ ... فهـــي حـــق ودونهـــا الآراءُ
وهـــو الحـــق مـــا لـــه مـــن شـــريكٍ ... ولكـــل ممـــا ســـواه ابتـــداءُ
خلـــق الخلـــق رحمـــة مـــن لدنـــهُ ... وحبـــاهم مـــن فـــضله مـــا يـــشاءُ
وهـــو الخـــير كلـــه للبرايـــا ... ســـاء مـــا ظنـــه بـــه الجهـــلاءُ
وهـــو الـــرب واللطيـــف بخلـــقٍ ... شـــأنه العفـــو والرضـــا والعطـــاءُ

الباب الثانى

فى جمال الكون

زينـــة الكـــون مظهـــر الحـــسن ســـرٌّ ... فيـــه يبـــدى لخلقـــه مـــا يـــشاءُ
قـــد كـــساه بكـــل مـــا يـــشتهيه ... أهلـــه فيـــه إنـــه المِعطـــاءُ
وتـــولى بحكمـــةٍ قـــسم رزقٍ ... وذوو الـــرزق فى الحقـــوق ســـواءُ
واصـــطفى آدمـــاً لحمـــل عهـــود ... وبنـــوه مـــن بعـــده خلفـــاءُ
حبـــذا الكـــون لـــو يكـــون مـــسوساً ... مـــن ذوى الـــرأى منـــهم الـــصلحاءُ
يتقـــون الإلـــه حـــق تقـــاتٍ ... وعلـــى الخلـــق هـــم لـــه أمنـــاءُ
يتمنـــون للأنـــام ســـلاماً ... في ذرى الأمـــن زانهـــم والرخـــاءُ
ولعمـــري مـــا أفـــسد الكـــون إلا ... فئـــةٌ كـــل همهـــا الاعتـــداءُ
تـــتمنى لنفـــسها كـــل خـــير ... ولهـــا وحـــدها فقـــط مـــا تـــشاء
همهـــا حظهـــا وحـــظ ســـواها ... ســـائر النـــاس دونهـــا ســـفهاءُ

Scanné avec CamScanner

الباب الثالث

فى جمال الحياة

إنمـــا الخلـــق فى الحيـــاة كمـــاء ... أنزلتـــه علـــى النبـــات الـــسماءُ

هـــى خُـــضرٌ مـــع الـــصباح حـــسانٌ ... ومـــع الليـــل لونهـــا صـــفراءُ

وأرى العمـــر والحيـــاة ازديـــاداً ... في أمـــانٍ ومـــا لهـــن انتـــهاءُ

حلقـــات الحيـــاة للنـــاس خمـــسٌ ... أجملتـــهن آيـــةٌ غـــرّاءُ

وهـــي اللـــهو بعـــد لعـــب تـــلاهُ ... زينـــة وافتخـــاره والثـــراء

يلعـــب المـــرء ســـبعةً في صـــباهُ ... ثم يلـــهو بمثلـــها مـــا يـــشاءُ

ويلـــيهن زينـــةٌ وافتخـــارٌ ... ثم يلهيـــه أهلـــه والثـــراءُ

وأراهـــا حيـــاة حـــسٌ ومعـــنىً ... ولكـــلٍ مـــن عنـــصرينا اشـــتهاءُ

وحيـــاة الأرواح فيهـــا ارتفـــاعٌ ... حـــين تـــسمو فأصـــلهن الـــضياءُ

ومـــنى الـــروح فى الحيـــاة ثـــلاثٌ ... وهـــى العلـــم والتقـــى والـــولاءُ

وحيـــاة الأجـــسام فيهـــا اســـتفالٌ ... إذ مـــن الطـــين أصـــلها الظلمـــاءُ

يـــشتهى الجـــسم فى الحيـــاة ثلاثـــاً ... وهـــى النـــوم والغـــذا والنـــساءُ

الباب الرابع

فى جمال الموت

إنمـــا المـــوت راحـــةٌ وانتقـــالُ ... مـــن فنـــاء لحيـــث يُلفـــى البقـــاءُ

وهـــى قـــسمان مـــوت حـــسٍّ ومعـــنىً ... لم تمـــت قـــط هـــذه العلمـــاءُ

إنمـــا النـــاس مـــا بنـــوه ويبقـــى ... بعـــد كـــلِّ هجـــاؤه والثنـــاءُ

وتـــرى المـــرء ميّتـــاً وهـــو حـــيٌّ ... وتـــرى المَيْـــتَ خلفـــه أحيـــاءُ

ولعمـــرى مـــا في الحيـــاة بقـــاءٌ ... ولكـــم عـــاش بعـــدهم عظمـــاءُ

ويـــرى النـــاس فى الحيـــاة نعيمـــاً ... إن أحـــسوا بـــأنهم طلقـــاءُ

Scanné avec CamScanner

ويـــرون الممـــات فيهـــا عيانـــاً بلظـــى الـــذل إن علاهـــم بـــلاءُ
ويلـــي المـــوت والحيـــاة حـــسابٌ لـــذوى العقـــل حيـــث يلفـــى الجـــزاءُ
ولمـــن كـــان طائعـــاً وتقيـــاً جنـــة الخلـــد فى الجنـــان الـــسماءُ
ولمـــن كـــان عاصـــياً وشـــقياً بـــاطن الأرض فى الجحـــيم الـــشقاءُ

الباب الخامس

فى جمال الإنسان

إنمـــا النـــاس قبـــضة مـــن تـــرابٍ جمعـــت فيـــه ظلمـــة وضـــياءُ
وأرى النـــاس أخـــوة ولـــدهم وغـــذهم لباهـــا حـــوّاءُ
إن يكـــن منـــهم افتخـــار بـــشيءٍ فـــبروحٍ وغـــير ذاك هبـــاءُ
أفـــضل النـــاس عـــالم وهـــواه أن يـــرى غـــيره وهـــم علمـــاءُ
أعقـــل النـــاس مـــدرك قـــدر نفـــسٍ لـــيس يطغيـــه منـــهم الإطـــراءُ
أســـعد النـــاس فى الحيـــاة فقـــيرٌ كـــان منـــه بمـــا لديـــه اكتفـــاءُ
أســـلم النـــاس فى الحيـــاة أريـــبٌ لـــيس يـــؤذى ومـــا لـــه أعـــداءُ
أســـوأ النـــاس فى الحيـــاة جهـــولٌ مـــستبدٌّ برأيـــه خطـــاءُ
أتعـــب النـــاس فى الحيـــاة كـــسولٌ لـــيس يـــسعى وكلـــه أهـــواءُ
أخطـــر النـــاس فاقـــد للأمـــاني عنـــده المـــوت والحيـــاة ســـواءُ
أعجـــز النـــاس حاســـد يتلظـــى أن يـــرى النـــاس أمطـــرهم سمـــاءٌ
وغريـــب فى الكـــون مـــن يـــتمنى أنـــه فى حياتـــه لا يُـــساءُ

الباب السادس

فى جمال النفس

وأرى الـــنفس -والنفـــوس كـــثيرٌ كحـــروف يـــضمهن هجـــاءُ

Scanné avec CamScanner

كـــل حـــرف لـــه صـــفات وشـــكلٌ ... فخفـــــاءٌ لبعـــــضها واســـــتواءُ
فطـــــر الحـــــق خلقـــــه في كتـــــابٍ ... خـــطٌّ فيـــه بحكمـــة مـــا يـــشاءُ
لـــيس حـــرف في ذاتـــه بمفيـــدٍ ... أيَّ معنًـــى ولـــيس عنـــه غنـــاءُ
ويزيـــد الكـــلام لفظـــاً ومعـــنىً ... بحـــروف في تـــركهن اعتـــداءُ
وهـــى الـــروح إن صـــفت وتحلـــت ... بالمعـــالي وزال عنـــها الغـــشاءُ
إنمـــا النـــاس للطبـــاع أوانٍ ... وبمـــا يحتـــوى يـــسيل الإنـــاءُ
وكبـــار النفـــوس يعمرهـــا البـــ ... ـــر ويحيـــا لمثلـــها العظمـــاءُ
وصـــغار النفـــوس يـــسكنها الـــشـ ... ـــر ويعيـــا بثقلـــها الـــضعفاءُ
إنمـــا الـــنفس طفلـــة تـــتمنى ... كـــل يـــوم مـــن رهـــا مـــا تـــشاءُ
لا تـــرى الـــنفس غـــير مـــا تـــشتهيه ... وهـــوى الـــنفس نقمـــةٌ وبـــلاءُ
وعـــلاج الهـــوى اتقـــا أشـــرارٍ ... وبأهـــل التعفّـــف الاقتـــداءُ

الباب السابع

فى جمال العقل

وأرى العقـــل حكمـــةً وانـــضباطاً ... في أمـــور والنـــاس فيـــه ســـواءُ
وهـــو القلـــب والقلـــوب أوان ... أثقلتـــهن فطنـــة أو غبـــاءُ
إنمـــا العقـــل حـــاكم مـــستقلٌّ ... لـــذوى الـــرأي منـــه يرجـــى القـــضاءُ
وهـــو في المـــرء ســـلطة وذمـــامٌ ... لـــيس جـــسماً ومـــا لـــه شـــركاءُ
هـــو غيـــب ولا يحـــاط بعلـــمٍ ... عنـــده الجهـــر والخفـــاء ســـواءُ
هـــو أعلـــى ومـــا لـــه مـــن مكـــانٍ ... أو زمـــانٍ ، وهـــل لـــه أكفـــاءُ
وهـــو الحـــق والمـــدبر أمـــراً ... ولـــه الحكـــم أو لـــه الإمـــضاءُ
هـــو أولى بكـــل وصـــف جميـــل ... وأقـــرت بـــذلك الأعـــضاءُ
وهـــو الـــرب للحـــواسّ جميعـــاً ... ولـــه فـــوق عرشـــها الاســـتواءُ

Scanné avec CamScanner

غـــير أن العقـــول كانـــت صـــغاراً ثم تمـــت ومـــا لهـــن بقـــاءُ
يعتريهـــا الـــذهول حينـــاً وتنـــسى ولـــدى العـــدِّ شـــأنها الإعيـــاءُ
أعجـــز العقـــل جمـــع ضـــدين فيـــه وارتفـــاع النقـــيض منـــه بـــراءُ
حـــير العقـــل أن يفكـــر يومـــاً في صـــغيرين والزمـــان ســـواءُ
جـــلَّ ربي عـــن أن يكـــون كعقـــلٍ زينـــة العقـــل عقلـــه والـــذكاءُ

الباب الثامن
فى جمال العلم

وأرى العلـــم نهـــضة واكتـــشافاً وبـــه ســـاد قبلنـــا القـــدماءُ
وهـــو النـــور والبيـــان الـــذى قـــد كـــان منـــه لآدم الأسمـــاءُ
إنمـــا العلـــم منـــهجٌ مـــستقيمٌ ســـلكت فيـــه قبلنـــا الأنبيـــاءُ
وهـــو قـــسمان علـــم عقـــل ونقـــلٍ منـــه كـــسبٌ وبعـــضه إيحـــاءُ
هـــو إرث ولـــيس حكـــراً لقـــومٍ وبقـــدر الـــتعلّم الأنـــصباءُ
رب علـــمٍ أضـــاعه عـــدم المـــا ل وجهـــل غطـــى عليـــه الثـــراءُ
لا تـــرى النـــاس حققـــوا أي شـــيءٍ دون علـــم هـــب أنهـــم علمـــاءُ
لـــيس في العلـــم مـــا يـــذم ولكـــن قـــد يـــسيئ اتجاهـــه الجهـــلاءُ
وكفـــى العلـــم ميـــزة وجمـــالاً أن لله أهلَـــــه شـــــهداءُ
وكفـــى الجهـــل ســـبةً وانحطاطـــاً أن إبلـــيس جنـــده الجهـــلاءُ
أنفـــع العلـــم مـــا بـــه عُبـــد اللـــ ـــه ويبقـــى تعليمـــه والهنـــاءُ

الباب التاسع
فى جمال المال

وأرى المـــال زينـــة وجمـــالاً تتـــأتى ببذلـــه الأهـــواءُ

Scanné avec CamScanner

إنمـــا المـــال ســـلعة مـــستعاره ... لـــيس يبقـــى ومـــا لـــه أقربـــاءُ
وهـــو للنـــاس فى الحيـــاة قـــوامٌ ... مـــا لحـــر بـــدون مـــال رُواءُ
إنمـــا المـــال طُعمـــةٌ أوصـــلتهُ ... لـــذوي الـــرزق بعـــد ســـعي قـــضاءُ
يتحلـــى ببذلـــه خـــيرة النـــا ... س ويـــشقى بجمعـــه الـــبخلاءُ
وتـــرى المـــال رافعـــاً لأنـــاس ... هـــم صـــغار بدونـــه أدنيـــاءُ
وتـــرى المـــال واضـــعاً مـــن أنـــاس ... هـــم كبـــار لـــو أنهـــم أغنيـــاءُ
إنمـــا النـــاس بـــالنفوس ولكـــن ... هـــم رهـــانٌ بمـــالهم أقويـــاءُ
وتـــرى الكـــل للغـــني محبـــاً ... دون نيـــل مـــن مالـــه هـــم رعـــاءُ
وتـــراهم مـــع الفقـــير علـــى العكـــ ... ـــس ، وإن هـــان هـــم لـــه أعـــداءُ
أنفـــع المـــال في الحيـــاة حـــلالٌ ... لـــيس إرثـــاً ولم يـــشنه ريـــاءُ
وأحـــب الأنـــاس للمـــال طـــرّاً ... -وبـــه تـــشترين- هـــن النـــساءُ

الباب العاشر

فى جمال الملك

وأرى الملـــك ســـلطة ونفـــوذاً ... لـــيس بالـــسهل إنـــه العليـــاءُ
لا يلـــي الملـــك غافـــل أو ضـــعيف ... إنمـــا الملـــك أهلـــه الأقويـــاءُ
يتـــولى مقالـــد النـــاس كـــفء ... وعلـــيهم يعينـــه الـــوزراءُ
عمـــد الملـــك أربـــع لا تـــراهُ ... مـــستتباً بـــدونها بـــل يـــساءُ
وهـــي العلـــم أولاً بالـــسياسة ... ثم مـــال وقـــوة وذكـــاء
وهـــو شـــورى مـــتى اســـتقام ويبقـــى ... بهجـــة الملـــك عدلـــه والـــسخاءُ
ولمـــن لكـــان مالكـــاً مـــستقيماً ... نـــصحه مـــن رعيـــة واقتفـــاء
ولهـــم منـــه علمهـــم وغـــذاهم ... وكـــساهم ومـــسكن ودواء
ويـــزين الملـــوك خفـــض جنـــاح ... للرعايـــا مـــع أنهـــم أقويـــاء

Scanné avec CamScanner

وأحـــب الملـــوك للنـــاس طـــرا ملـــك زانـــه النـــدى والـــسخاء

الباب الحادى عشر

فى جمال الزواج

زينـــة العقـــد فى الـــزواج ارتبـــاطٌ بـــين كُفـــئين يقتـــضيه الوفـــاءُ
إنمـــا العقـــد فى الـــزواج بنـــاءٌ شـــيدته محبـــة وإخـــاءُ
فـــإذا مـــا بنـــوا بنـــاءً مـــشيداً ســـكنته الأبـــاء والأبنـــاءُ
إنمـــا البيـــت مـــزرع فيـــه يزهـــو بيـــد الأهـــل روضـــة غنّـــاءُ
فـــإذا طـــاب أرضـــها فهـــي طيـــبٌ وإذا ســـاء أصـــلها فغثـــاءُ
ويـــرى الـــزوج زوجـــه كـــشريك لـــيس نـــدّاً لكـــن لـــه أنـــداءُ
كـــل زوج لـــه حقـــوقٌ وفـــضلٌ وعليـــه بمثـــل ذاك الجـــزاءُ
يـــتمنى لزوجـــه كـــل زوجٍ أن يـــرى الـــسعد صـــبحه والمـــساءُ
يتغاضـــى عـــن هفـــوه ويـــرى أن لرضـــى الـــزوج كـــل شـــيء فـــداءُ
ونجـــاح الـــزواج بعـــد اتفـــاقٍ إن بقـــدر المـــشقة الإعفـــاءُ
وفـــساد الـــزواج يـــوم تـــراه لـــيس للـــسر بينـــهم إخفـــاءُ

الباب الثانى عشر

فى جمال الحب

زينـــة الحـــب رقـــةٌ وجمـــالُ نـــسجته بقلبـــها الأصـــدقاءُ
وأرى الحـــب فى القلـــوب حبوبـــاً زُرعـــت فيـــه حـــين كـــان النَّـــشاءُ
تتغـــذى برؤيـــة ثم تنمـــو بـــصبا الوصـــل حيـــث كـــان اللقـــاء
أجمـــل الحـــب للـــذوات ويبقـــى دون ريـــب جمالـــه الإهـــداءُ
وأضـــر الأمـــور بالحـــب فيـــه أن يـــرى المنـــع حاكمـــاً والعطـــاءُ
إن أسمـــاء لم تـــذر في فـــؤادي أي حـــب إلا وفيـــه نمـــاءُ

Scanné avec CamScanner

سـقت النجـد والوهـاد فأضـحى كـل واد يـسيل فيـه المـاءُ
مـلأ القلـب حبـها واسـتقرت في مكـان مـن دونـه العنقـاءُ
إن للحـب في القلـوب محـلاً لم ينلـه بوصـفهم شـعراءُ
أحـسد الـشمس أن تـراك بعـين وأرى أن يـذاد عنـك الهـواءُ
لا تـسيئي بي الظنـون فـإني مـن كـريم أبـاؤه كرمـاءُ
لم تلـدني لئيمـة ونمـتني لـذرى المجـد همـة عليـاءُ

خاتمة

فى عقد الاتفاق بين أبي محمد وأم البنين

وتعـالي لعقـد خـير زواجٍ لم يـذق قـط طعمـه الـسعداءُ
قـد جعلنـا الوفـاء فيـه شـعاراً يـوم كـان الإعـراب ثم البنـاءُ
وتوالـت مـن بيننـاً حركـاتٌ ظـاهرات وبعـضهن خفـاءُ
وجزمنـا فالعقـد فيـه ارتفـاعٌ عـن أمـور والنـصب فيـه عنـاءُ
وخفـضنا ومـا لنـا أىّ كـسرٍ وسـكنّا فى الـضم وهـو العـلاءُ
وانعطفنـا فبـان منـا اتّـساقٌ ونعتنـا في الحـب حـاءٌ وبـاءُ
مثلـها يفـتح النـصيحة للنـا س كـرأيٍ ودونـه آراءُ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصبحه أجمعين
صبيحة عيد الفطر عام ١٤٣١ الموافق ٢٠١٠/٩/١٠

Scanné avec CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على النبى الكريم وعلى آله وصحبه وسلم

[ما شاء الله لا قوة إلا بالله]

الحمد لله الذى أبدع الوجود وزينه بصور من جماله ، وكسى الكون وجمله بحلل من عظيم قدرته وجلاله ، وعم الخلائق جميعاً بإتقانه وإبداعه وإحسانه وآلائه ، وجعل الحياة والموت نعمة ورحمة وراحة لهم فى دار ابتلائه ، واصطفى النفس الإنسانية وجعل حاملها أشرف الكائنات السفلية ، وفضّله على سائر الحيوانات بروحه القدسية ، ووزنه بقالب القلب وزانه بعقل الامتياز الذى هو من خصائص الانس والملك والجانّ ، وعلّمه سبحانه وتعالى الأسماء كلها وامتن عليه بنعمة العلم والبيان ، ثم سهّل له سبيل الحياة ووفّر له الكثير من حاجاته بنعمة المال والإخوان ، وحفظه من شر أعدائه ومتعّه بخير أودّائه بقوة الملك والسلطان، ورزقه الاستمتاع فى الحياة بنعمة الأهل والأزواج والولدان ، وأتمّ نعمته عليه بسرّ الجمال الذى هو الحب الذى لولاه ما تعارف من بني جنسه الثنان .

سبحانه هو الذى أتقن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون .

أحمده على ما علمنا من البيان ، وأشكره على ما حبب إلينا وزينه فى قلوبنا من الإيمان، وأعتصم به من الكفر والفسوق والعصيان ، وأسأله أن يجعلنا وإياكم من الراشدين .

وأصلى واسلم على سيدنا ونبينا وحبيبنا محمد النبى الأمي الذى أرسله رحمة للعالمين ، وجعله شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، صلى الله عليه وعلى آله وصبحه وسلم ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين وبعد ....

Scanné avec CamScanner

فيقول أفقر العبيد إلى رحمة مولاه الغفور الودود أبو محمد معاذ أحمد عمر محمد الأفريقى الفلاني المالي الشهير بإبراهيم أحمد عمر كان الله له وللمسلمين بنصره وعونه وتأييده آمين .

هذا شرح لطيف وتعليق خفيف على منظومتنا التى سميناها " بالزينة والجمال " أهديها إلى أخي الأكبر وحبيبي فى الله الشيخ الجليل أبي المحامد مسعد محمد الدريني الذى كان سعيه مشكوراً وأجره موفوراً بإذن الله تعالى عندما خطب لأبى محمد أخته الكريمة أم البنين ، راجياً من الشيخ المذكور جزاه الله خيراً ان يبلغها – ويكون شاهداً على ذلك – بأن أبا محمد يعتبر هذه المنظومة فى الحقيقة بما حوته من الزينة والجمال والقيمة والكمال " هى مهرها الغالي والنفيس" ، إذ مثلها لا تخطب بأحجار الذهب والفضة وإنما تخاطب بجواهر العلم والحكمة ،و ليعلمها أن أبا محمد إنما رغب فيها لحجابها وكتابها لا لخضابها ورضابها ، وليبشرها بإذن الله تعالى بأنها لم تبع رخيصاً ولا اشترت نقيصاً ، وإنما فازت بأبي محمد .

سائلاً الله تعالى أن يبارك فيها وينفع بها فى الدين والدنيا والآخرة .

وبما ان الزواج مشروع حياة مشتركة لبناء مستقبل أفضل فقد أردنا خلال ذلك النظم والشرح أن نبين لأختنا الكريمة خصوصاً ولجميع أحبابناً عموماً وجهة نظرناً للوجود الذى لا نراه إلا جميلاً ، إذ بتفهم كل من الناس لوجهات نظر أخيه الإنسان يسهل التعامل معه فى شتى مجالات الحياة أكثر فأكثر.

هذا والزينة والجمال باب واسع جداً إلا أنه كله حقلة واحدة ، من نقطتها المبدأ وإليها الختام ، وإنما يأخذ بعضه بعناق بعض ويزين كل فصل من فصوله ما قبله ويتحلى بما بعده ، صنع الله الذى أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون .

والذين ألفوا فى الجمال قبلنا كثيرمنهم من أحسن غاية الإحسان وأجاد واصاب فيما قال وأفاد ، إلا أنهم لم يستوعبوه جميعاً وإنما اقتصروا على شيء واحد منه غالباً كالحب ،

Scanné avec CamScanner

ومنهم من زاد على ذلك قليلاً ، ومنهم من خلط بعضه ببعض ، ومنهم من لم يهتدِ إلى ذلـــك المنهج سبيلاً وإنما أعاد ما أجمله غيره تفصيلاً ، ومنهم من اكتفى بما يراه هو جمـــيلاً " ولكـــل وجهة هو مولّاها فاستبقوا الخيرات " .

فاستخرنا الله تعالى واستعنا به في أن يهدينا إلى الحق بإذنه فيما اختلف فيه النـــاس وأن يلهمنا الصواب من ذلك ويرينا شيئاً من زينته وجماله وقد فعل! والحمد لله كثيراً ، فجـــاءت منظومتنا هذه مع صغر حجمها شاملة لكل ما هو جميل إذ بدأت بأصل الجمال كلـــه وهـــو "الله " سبحانه وتعالى وختمت بسر الجمال كله وهو " الحب " .

وقد تناولنا ذلك في مئة وسبعين بيتاً وقسمناها إلى اثنى عشر باباً هى فصول الجمال مـــع مقدمة وخاتمة ، وعلقنا عليها تعليقاً خفيفاً رجاء أن نشرحه فيما بعد إن شاء الله تعالى ، فجـــاءت بحمد الله تعالى سهلة فى نظمها صغيرة فى حجمها لم يطرق بابها ولم يكشف حجابها نسأل الله تعالى الإخلاص والقبول ، كما نسأله سبحانه أن يجعلها لنا زينة وجمالاً فى الدنيا والآخرة وأن يجعلـــها نافعة لأصحابها ورافعة لأحبابها بمنه وكرمه آمين .

وليعلم الناظر والمطلع على منظومتنا هذه وشرحها أننا ألفناها وشرحناها لأحبابنا ولن نبخل عليهم بنصيحة ولا نضن عليهم بحسن توجيه إذ المؤمن يحب لأخيه مـــا يحـــب لنفـــسه والمؤمن مرآة أخيه المؤمن .

ثم إن جميع ما يرد فى ذلك هى بحمد الله تعالى من آراء المؤلف الخاصة به وهو المسئول عنها أمام الله تعالى أولاً قبل غيره سبحانه .

وجل تلك الأراء معتمدة ومستندة ومستمدة من الكتاب والسنن الصحيحة الـــصريحة بالإضافة إلى ما ترجح لدينا من آراء العلماء الراسخين فى العلم دون أن يكون الحق محـــصوراً فى واحد منهم بعينه إذ العلم يحيا بين أهله وهو تراث الناس جميعاً .

Scanné avec CamScanner

وكثيراً ما نرجح من ذلك ونميل إلى آراء الشيخ العالم العلم شمس الأئمة أبي محمد بن حزم رحمه الله تعالى وما ذلك إلا لرسوخ قدمه وعلو كعبه فى الفلسفة الإنسانية عموماً والإسلامية خصوصاً والله يختص برحمته من يشاء .

وما قصدنا من وراء كل ذلك إلا الخير وبيان الحق واتباع سبيل المؤمنين وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلنا وإليه ننيب وهو حسبنا ونعم الوكيل .

Scanné avec CamScanner

مقدمة

قال الناظم

آذنـــــتني بوصـــــلها أسمـــــاءُ أي أرض جـــادت عليهـــا الـــسماء

يعارض الناظم بقصيدته هذه معلقة الحارث بن حلّزة اليشكري الشاعر الجاهلي المعروف والتى مطلعها " آذنتني ببينهـــا أسماء رب ثاو يمل منه الثواء "

ولم نشابهه في شيء من قصيدته إلا فى مطلعها ومقطعها إشعاراً بالمعارضة ، وقـــصيدة الحارث وإن كان قائلها جاهلياً لا يؤمن بالله واليوم الآخر إلا أنها مليئة بالحكم والقيم التى قل وجودها فى حياة الناس اليوم .

ولعلنا نستطيع عبر ذلك أن نعرض صورة رائعة من جمال الإسلام وزينته بالمقارنـــة إلى شتى الأديان والحضارات والتوجهات الإنسانية القديمة والحديثة ، واستعار النـــاظم لنفـــسه الأرض والسماء لمحبوبته التى تمطر عليه بحبها وحنانها وعطفها ، والوصل باب عظـــيم مـــن أبواب الحب الأثني عشر ويتمناه كل حبيب لحبيبه ، ويقابله البين الذى هو شؤم يفـــر منـــه الأحباب وبه افتتح الجاهلي قصيدته. ثم قال :

بعـــد عهـــد لنـــا بأروقـــة الأز هـــر فيهـــا غـــدونا والمـــساء

العهد هو المدة والأروقة جمع رواق وهي الأماكن المخصصة للتدريس في مسجد الجامع الأزهر الشريف وفيها تعرفنا على أم البنين حيث كنا مدرسين صباحاً ومساءاً للعلوم الدينيـــة العتيقة ، وخلال ذلك التدريس واللقاءات المتكررة بيننا وبين الزملاء طلاب العلم من جميـــع أنحاء العالم فى الجامع الأزهر الشريف كنا نجري امتحانات للطلاب في كل مادة وكتاب أنهيناه حفظاً وتسميعاً وكتابة وتصحيحاً ، لاكتشاف المواهب والفهم الذى يتم إنجـــازه بفـــضل الله

Scanné avec CamScanner

تعالى ، فاتفق أن وفدت علينا الأخت الكريمة وتفوقت على جميع الطلبة رجالاً ونساءاً ولعدة مرات .

والأزهر الشريف هو الجامع العتيق الذى بناه السلطان الفاطمي جوهر القائد بأمر من الحاكم وله اليوم في تاريخ الإسلام أكثر من ألف عام أثرى فيه الأمة الإسلامية بكل ما تحتاج إليه من العلماء والأكابر والمفكرين والمجتهدين قديماً وحديثاً منهم على سبيل المثال لا الحصر العالم الكبير والمحدث العظيم ابن حجر العسقلاني الذى كان إماماً للجامع الشريف وفيه ألف كتابه الكبير فتح الباري بشرح صحيح البخارى ثم قال :

رب حب أضاعه عدم القر ب وعشق أبان عنه اللقاء

أحب شيء إلينا فى الحياة الدنيا من حيث وظائف الدين هو العلم والتعلم والتعليم ، وبما أن الأخت الكريمة تفوقت على سائر الطلبة جميعاً فقد أصبحت لها مكانة خاصة عندنا إلا أننا لم نفكر في الارتباط بها يوماً بقصد الزواج ، إلى أن عرض لنا رحلة إلى بلادنا بقصد الزواج ، فعرض علينا من يعز علينا فراقه ويحرم علينا شقاقه – وهو أبو المحامد – أن نختصر الطريق ونختار من اللواتى يحضرن دروس العلم معنا من تكون لنا خير عون على ذلك إن شاء الله تعالى .

فاستربنا من ذلك أولاً واستشرفناه ثانياً وأبقيناه طي الكتمان إلى أن رجعنا من الحج عام ثلاثين وأربعمائة وألف فأذنا للشيخ المذكور أن يخطبها لنا إلى أهلها وذلك بعد أن استخرنا الله تعالى ودعوناه أن يرزقنا منها ذرية طيبة ويجعلها لنا نعم العون فى خدمة دينه والدعوة إليه إن شاء الله تعالى .

هذا والأمور تجزى بالمقادير فلولا قدر الله السابق لخلقه ولولا العلم ومحبته والالتفاف حول حلقاته فى المساجد لما تعرفنا على الأخت المذكورة ولا عرفتنا فضلاً عن أن يحب بعضنا

Scanné avec CamScanner

الآخر ، فللقرب والبعد تأثيران عظيمان فى الحب ووراء ذلك كله تدبير الله تعالى وحكمتـــه سبحانه وتعالى :

ثم قال :

أبعـــدّ الخـــصال أوفيـــك مـــدحاً أم بوصـــف الجمـــال يـــا أسمـــاء

الجمال قسمان : جمال خلق بالفتح وجمال خلق بالضم والثانى أشـــرف مـــن الأول ، واختار الله سبحانه وتعالى لنساء الجنة الجمالين معاً فقال سبحانه :" ولهم فيها أزواج مطهرة " أي طهارة حسية ومعنوية فالحسية هى جمال الظاهر ، والمعنوية هى جمال الباطن ، وذكر النبى عليه السلام الجمالين معاً وأمر بالنظر إلى الثاني لمكانته فى الإسلام فقال عليه السلام :" تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك " ، والشاعر حـــائر فيمـــا يدعيه بين الجمالين بأيهما يبدأ في وصف محبوبته ثم قال :

هـــى أخـــت كريمـــة ذات ديـــن زانهـــا العلـــم والتقـــى والحيـــاء

لا جرم أن بدأ الشاعر بالجمال المعنوي الذى أغفله الشعر الجاهلي قاطبة فلم يـــصف الجاهليون من النساء إلا مظاهرهن فقط ! وتلك ظل زائل وعارية مسترجعة تزول مع الأيام والليالي ، وأما الجمال المعنوي فإنه يبقى يوماً بعد يوم بل يزداد مع التقدم فى العمر والنضج فى الفكر وبالتالي فهو الجمال كله ، والأخت الكريمة أم البنين جمع الله تعالى لها الجمالين معاً فهى أخت متدينة محبة لدينها ولثقافتها العربية ولولا ذلك لما اهتدت إلى الأزهر الشريف ســـبيلاً ، وهى مع ذلك عالمة بدينها ودنياها ومتخرجة من جامعة عين شمس فى قسم الأدب الإنجليزى ، وتفوقت على زملائها هنالك أيضاً وجاءت بتقدير جيد جداً ، كما تخرجت من معهد الدعاة إلى الله بتقدير امتياز وكانت الأولى على مستوى جمهورية مصر العربية فى ذلك ، وحفظـــت معنا جميع المتون التى شرحناها فى الفقه والنحو والأصول واللغة ، وزانها فوق كل ذلك تقواها

Scanné avec CamScanner

لربها وحياؤها الذى هو خلق الإسلام ، نسأل الله تعالى أن يكثر من أمثالها فى شباب وشـــبات المسلمين ويقينا وإياها من كل سوء آمين .

ثم قال :

يتجلى مـــن وجههـــا طلعـــة البـــد ... ر ويخفـــــى فى فرعهـــــا الظلمـــــاء
ما أرى الـــشمس حـــين تـــشرق إلا ... منـــك يـــأتى شـــعاعها والـــضياء
أيـلإن منـــك النـــسيم فى بـــسمات ... لإأين منـــك العطـــور حيـــث البـــهاء
حاكيـــات لـــك الـــورود وغرقـــى ... نـــــداك البحـــــار والأنـــــوار
مـــا لهنـــد ذكاؤهـــا أو لدعـــد ... جـــــدها أو لجيـــــدها شـــــيماء
دميـــة مـــن دمـــى الجمـــال ورئـــم ... شـــاكلت عينـــها المهـــا والظبـــاء
عقـــــد در تزينـــــه خـــــرزات ... ركبـــــت فيـــــه لؤلـــــؤ وصـــــفاء

ورغم كون الجمال الأول هو الذى قدمه الإسلام واعتبره إلا أنه لم يغفل أيضاً القسم الثانى من الجمال قال تعالى :" وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون " فشبه نساء الجنة لجمـــالهن باللؤلؤ المكنون وقال عليه السلام " حبب إلي من دنياكم ثلاثٌ فذكر الطيـــب والنـــساء " وقال عليه السلام :" تزوجوا الودود الولود " وإنما نهى الإسلام عـــن الاكتفـــاء بالجمـــال الظاهري فقط وعدم الالتفات إلى الجمال المعنوي ، قال عليه السلام :" إيـــاكم وخـــضراء الدمن ، قيل وما خضراء الدمن يا رسول الله قال عليه السلام :" المرأة الحـــسناء فى منبـــت السوء " ومنبت السوء هو خبث النفس ورداءة الأصل والطبع أعاذنا الله جميعاً منه ، وكما أن الجمال الظاهري له وقعه فى النفوس فإن له طعمه الخاص أيضاً فى الأدب العـــربي إذ لم يتبـــوأ امرؤ القيس زعامة الشعر العربى كله إلا بذلك ، والأبيات السبعة المـــذكورة جمعـــت جميـــع مشبهات النساء فى الأدب العربى القديم وزادت على ذلك ، وفيها الكثير والكثير من المحاسن البلاغية من مقابلة وتشبيه واستعارة وكناية ومبالغة وغيرها مما يأتى ذكره فى الشرح الكبير إن شاء الله تعالى .

Scanné avec CamScanner

ثم قال :

مـــن لعـــادٍّ بحـــصر عـــدّ نجـــوم   وهـــو يعيـــه نورهـــا والـــضياء
رب ان الهـــدى هـــداك وءايـــا   تـــك نـــور تهـــدى بهـــا مـــن تـــشاء

تساءل الناظم هنا سؤالاً استنكارياً كيف يمكن حصر جمال محبوبته وهـي في كثـرة محاسنها كالنجوم التى ترد بضوئها عيون الناظرين وتصد بعلوها أفكار العادين ، ثم بدأ الناظم يتخلص من الغزل من القول إلى الجزل منه ، وقد جارينا بذلك الشاعر الجـاهلي فى مطلـع قصيدته ، وضمنا مطلع قصيدتنا المبادئ الإسلامية الجميلة التى تقوم علـى أساسـها المحبـة الصادقة ، والمودة المباركة التى أذن الله تعالى بها . ثم سأل الله تعالى أن يهديه وينير له الطريق فيما يقصد إليه وهو وضع كتاب فى الزينة والجمال إن شاء الله تعالى .

ثم قال :

صـــانك الله مـــا يـــسوء وأرضـــى   بـــك بعـــلاً وطـــاب فيـــك الثنـــاء
هـــاك مـــنى نـــصائحاً نـــسجتها   لـــك مـــني محبـــة ووفـــاء

دعاء لنا ولأختنا الكريمة جميعاً أن يوفقنا الله تعالى لما يحبه ويرضاه ، وأن يصرف عنـا جميعاً كل سوء ، ويقينا أعين الحاسدين والحاقدين ، ويجعلنا عند حسن ظن الآخر وفوق ذلك ، وأن يوفقنا للوفاء بما التزم به كل منا للآخر بإذن الله تعالى إنه ولي ذلـك والقـادر عليـه سبحانه وتعالى ، وهذه المقدمة تحمل توقيع الناظم وختمه إذ أوائلها منسوجة على اسمه ورسمه والله المستعان ، وهذا أوان الشروع فى المقصود بحول الله تعالى وقوته .

الباب الأول

فى جمال الله سبحانه وتعالى

زينة الوجود وأصل الجمال كله هو الله سبحانه وتعالى لأنه خالق كل جميل ! قال عليه الصلاة والسلام : " إن الله جميل يحب الجمال "

[والجمال هو كل ما تطمئن إليه النفس وتنبسط له الجوارح وتسكن إليه الحواس] .

والزينة هى قرينة الجمال لأنه لا يتزين إلا بما هو جميل !

والجمال فن واسع تشارك في إدارك أنواعه جميع الحواس ، فالجميل فى العين اسمه الصورة كالوردة والزهرة ، والجميل فى الأنف اسمه الطيب كالمسك والعنبر ، والجميل فى المذاق اسمه الحلو كالعسل والفاكهة ، والجميل فى الأذن اسمه النغم كالموسيقى والنشيد ، والجميل فى اللمس اسمه الناعم كالحرير والقطن ، والجميل فى القلب اسمه الإيمان وهو أجمل من كل جميل !

وإنما كان الجمال المدرك بالقلب - وهو الإيمان - أجمل من كل جميل لسببين :

أولهما : أنه الجمال الوحيد الذى لا يتذوقه الجميع وإنما يخص الله به من يشاء ويصطفى من عباده ! بخلاف ما سواه من الجمال فالناس شركاء فى الجمال المرئي من الصور وهم شركاء فى الجمال المسموع والملموس وغيرها ، مؤمنهم وكافرهم فى إدراكه سواء بخلاف جمال الإيمان فهو لمن خصهم التوفيق فى الأزل قال تعالى :" ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم " .

وثانيهما : أنه الجمال الوحيد الذى تشترك في إدراكه جميع الحواس بخلاف ما سواه من الجمال ، فلا يدرك جمال الصور المرئية إلا العين فقط ، ولا يدرك جمال المشموم من أنواع

Scanné avec CamScanner

الطيب إلا الأنف فقط ، ولا يدرك جمال المسموع إلا الأذن فقط بخلاف جمال الإيمان العظيم فهو مدرك بكل الحواس ومتذوق بكل الجوارح ، والإيمان وإن كان الأصل فى إدراكه القلب إلا أنه يتطور وينمو مع الأيام لتدركه جميع الحواس قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه فى الحديث القدسى الجليل :" ولا يزال عبدى يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ! " فالمؤمن الكامل يرى ويتذوق الإيمان بعينيه ويسمعه بأذنيه ويمسه بيديه بعدما تذوقه بقلبه !

قال الناظم

زينة الدين آمنوا يا عبادي واعملوا الخير ، ليس فيه مراء

[الدين هو المنهج السليم الذى اختاره الله تعالى لعباده المكلفين لنيل سعادة الدنيا والآخرة]

وهو المعبر عنه فى القرآن الكريم " بالصراط المستقيم "وهو منهج الأنبياء والمرسلين جميعاً قال تعالى :" اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم " وإنما أنعم الله من بين عباده على الذين ذكرهم بقوله تعالى :" ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا " .

وللدين ركنان عظيمان وشرط واحد ، وهو كله شيء واحد غير قابل للتجزئة ولا يستغنى ببعض ركنيه عن الركن الآخر ولا وجود لركنيه إلا مع الالتزام بشرطه .

فالركنان هما الإيمان والإسلام ، والشرط هو ترك الخلاف والشقاق فى الدين قال تعالى :" شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليه وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه " فقوله تعالى :" أقيموا الدين " شامل لركني الدين معاً وقوله تعالى " ولا تتفرقوا فيه " بيان لشرطه .

[والإيمان هو الاعتقاد واليقين الجازم فى الله تعالى] وهو الأساس والمبدأ الذى يبنى عليه ما بعده .

Scanné avec CamScanner

[والإسلام هو جماع العمل الصالح كله]وهو التطبيق الفعلي الذى يستدل به على الايمان .

ولكل من الإيمان والإسلام أركان خمسة يبنيان عليها ، فأركان الإيمان الخمسة هى : الإيمان بالله تعالى أولاً وملائكته ثانياً وكتبه ثالثاً ورسله رابعاً واليوم الآخر خامساً هذه هى أركان الإيمان قال تعالى :" ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين " وقال تعالى :" ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً "

وأركان الإسلام الخمسة ذكرت فى قوله عليه الصلاة والسلام :" بنى الاسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (ص) وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا " .

هذا وليس الإيمان والاسلام محصورين فى أركانهما الخمسة كما يظن كثير من الناس ، فهناك مايجب أن يؤمن به ويعمل به غير ما تقدم كثير ، إلا أن جل ذلك تستلزمه تلك الأركان .

وهذه الأركان هى التى لابد منها لتحقق كل من الإيمان والاسلام إذ الشيء لا يبنى إلا على أركانه وإن كان أكبر وأوسع من أركانه بكثير .

وأما من ترك شيئاً من أركان الإيمان الخمسة فلم يؤمن به أو ترك شيئاً من أركان الإسلام الخمسة فلم يعمل به فهو خارج عن الدين إجماعاً ، ومثله فى ذلك من ترك الوفاء بشرط الدين الذى هو ترك الخلاف والشقاق فيه إذ الدين لا يتحقق إلا بترك ذلك قال تعالى :" إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء " وقال تعالى :" ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ".

وأما إن ترك شيئا آخر مما يجب الايمان به كالقدر وعذاب القبر أو ترك شيئاً مما يجب العمل به كالصدق والأمانة فإنه يعتبر مخطئاً ناقص الإيمان ضعيفاً فى الإسلام إلا أنه لا يكفر بذلك والله سبحانه أعلى وأعلم ثم قال:

Scanné avec CamScanner

لم يكـــن قـــط فى الإلـــه عقيـــده غـــير هـــذا ومـــا عـــداه هـــراء

" الدين والإيمان والإسلام " كلها شيء واحد لا يتجزأ ويطلق بعضها على بعض لاستلزام كل منها للآخر ، وأما إذا انفرد بعض تلك الكلمات عن الآخر فلكل مدلوله الخاص ، فالدين باعتبار المنهج والإيمان باعتبار الاعتقاد والاسلام باعتبار العمل ، إلا أن كل ذلك جزء لا يتجزأ قال تعالى :" إن الدين عند الله الإسلام " وقال تعالى :" فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين " فأطلق بعضها على بعض سبحانه .

وقد امتلأ القرآن الكريم كله بالآيات البينات الواضحات التى ترشد إلى ركني الدين ومجموع تلك الآيات تناهز خمس آي القرآن الكريم بين مجمل ومفصل !! كقوله تعالى :" إن الذين امنوا وعملو الصالحات " " والذين امنوا وعملو الصالحات" " إلا الذين آمنوا وعملو الصالحات " " إلا من آمن وعمل صالحا " " ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا " بلى من آمن وعمل صالحا "" من عمل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن " " فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون " إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصى .

وقال عليه السلام : " قل آمنت بالله ثم استقم " فقوله قل آمنت هو الركن الأول من ركني الدين وقوله ثم استقم هو جماع العمل الصالح كله وهو الاسلام .

هذا هو الدين الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين وهو منهج الأنبياء والمرسلين والسلف الصالح جميعاً ، الإيمان بالله أولاً والعمل الصالح ثانياً وترك الشقاق والجدال فى الدين ثالثاً ،وليس هنالك شيء آخر إلا الظنون والأوهام والأكاذيب التى ما أنزل الله بها من سلطان ، ومن أنكر ذلك فليأتنا بآية واحدة أو حديث صحيح أو ضعيف ولو واحد فى معتقده الذى يدعوا الناس إليه ولن يجده أبداً والحمد لله كثيراً .

Scanné avec CamScanner

ثم قال :

إنمـــا الـــرأى مخطـــأ ومـــصيب ولـــدى الغيـــب تكثـــر الآراء

[الرأي هو اجتماع العقل والحاسة في فهم أمر ما] ، فإن الرؤية تكون بالحاسة المجردة يقظة، والرؤيا تكون بالعقل المجرد مناماً، وأما الرأي فإنه يكون بهما معاً . بحيث يرى الإنسان الشيء بعينه أولاً ثم يفكر فيه بعقله ثانياً ثم يصدر رأيه ثالثاً ، وإصابة الرأي فيما كان كـــذلك أكثر من خطئه لأنه انطلق من المشاهدة والحس وتسلح بسلاحيه وهما الحاسة والعقل معاً .

وقد يتجرد الرأى عن أحد ركنيه فيقتحم صاحبه بمجرد عقله مالم يره بعينه وعند ذلك يكون خطؤه أكثر من صوابه ، ولذلك تضطرب وتختلف الآراء وتكثر فيما لم يره الناس أكثر من غيره . ثم قال :

لـــيس للـــرأي في الإلـــه نـــصيب إنمـــا الـــرأى واهـــم خطّـــاءُ

ليس هناك فى الوجود كله إلا الله تعالى أولاً ثم خلقه ثانياً ، ولا يوجد شيء آخـــر فى الوجود فكل مالم يكن إلهاً فهو مخلوق ، والله تعالى واحد لا شريك له ، وأما خلقه فكثير .

إلا أن الخلق بالنسبة لنا نوعان **عالم الغيب** وهو مالا نـــراه مـــن الخلـــق ، **وعـالم الشهادة** وهو ما نراه ، وكلاهما مخلوق صغير لله تعالى وقد أحاط بهما علماً وأخبرنا بـــذلك فقـــال سبحانه :" عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال " وقال تعالى :" إن الله لا يخفى عليه شـــيء فى الأرض ولا فى السماء وقال تعالى :" وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى الـــبر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين " ، كما أخبرنا سبحانه أنه علّمنا بعض ما في عالم الشهادة مما نراه بأعيننا قال تعالى : " قل سيروا فى الأرض فانظروا " وقال تعالى :" أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم " ، وأما عالم الغيب فأخبرنا أنه سبحانه استأثر بعلمه إلا أنه قد يطلع على ذلك من اصطفاه واختاره مـــن

Scanné avec CamScanner

عباده قال تعالى :" عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول "، وقال تعالى :" وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ".

صغير

واعلم أن الغيب والشهادة كلاهما مخلوقٌ لله تعالى ، والله سبحانه وتعالى فوق كل ذلك لانه ليس كمثله شيء! فإذا كان الرأى يصيب فى عالم الشهادة وقد يخطئ وأما فى عالم الغيب فلا يعلم إلا ما علمه الله تعالى بنص القرآن الكريم فما باله إذا أراد أن يقتحم جلال خالق الغيب والشهادة معاً ويحوم حول حماه ، فبكل هدوء هو معتدٍ وواهم وخطاء في ذلك ولا يصل إلى شيء هنالك أصلاً .

ثم قال :

فاعبد الله مؤمناً مطمئناً ومع الشك والظنون العناءُ

وإذا كان الأمر كما ذكرنا من أن الرأي إذا تسلح بسلاحيه معاً أصاب فى عالم الشهادة وقد يخطئ وإذا تجرد عن أحدهما أخطأ فى الغيب والشهادة معاً وكلاهما مخلوق صغير لا يساوي شيئاً بجانب الخالق الأعلى سبحانه وتعالى فالواجب على المكلف المدرك قدر نفسه بعد الإيمان بالله تعالى هو العمل الصالح الذى تمثل العبادات جزءاً منه وليست هى كله إذ العمل الصالح هو كل ما ينفع الناس فى دينهم ودنياهم . وعلى المرء أن يطمئن إلى وجود خالقه ويؤمن بذلك من كل قلبه ويجتهد فى العمل الصالح بقدر المستطاع ، ويكتفى بذلك ولا يدخل نفسه فيما لم يكلفه الله تعالى به وهو البحث عن ذات الله تعالى أو صفاته أو أسمائه فإن الله تعالى لم يكلف بذلك أحداً من العالمين ،ويتحدى العبد الفقير من ينكر ذلك أن ياتيه بآية واحدة من القرآن الكريم أو سنة واحدة تأمر بالبحث عن ذلك فضلاً عن الخوض والخلاف والتنازع فيه .

Scanné avec CamScanner

والبحث فى ذات الله سبحانه وتعالى إن كان الغرض منه إقناع الكافر والرد على شبه المنكر فهو مشروع ولأجله أنشأ أهل الكلام ذلك الفن العظيم الذى يقف سداً منيعـــاً أمـــام شبه أعداء الدين ، ولكنهم لم ينشئوه بقصد حمل المسلمين عليه .

وإنما أمر الله سبحانه بالبحث والنظر فى آياته والقرآن الكريم ملـــيء بـــذلك ، وأمـــا الركوب على الظنون والأوهام في البحث عن ذات الله تعالى فهو منهي عنه قال تعالى :" قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تدعون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن اكون من المؤمنين " فنهى سبحانه وتعالى الناس عن الشك والظنـــون فى الدين وأمرهم بالعبادة ودعاهم إلى الإيمان ثم ذكرهم بأية من آيات قدرته سبحانه وتعالى وهى الإحياء والإماتة وأمثال ذلك فى القرآن الكريم كثير .

ثم قال :

لـــيس لله مطلقـــاً مـــن صـــفات يتمـــارى في شـــأنها الخـــصماءُ

ومع أن الواجب على المسلمين هو الإيمان أولاً والعمل الصالح ثانياً ونبذ الاختلافـــات فى الدين ثالثاً ليتم لهم كل ما وعدهم الله تعالى به من نحو قوله تعالى :" هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله " وقوله تعالى:" وعد الله الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الـــذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا " إلا أنهم لم يفعلوا ذلك وإنما تركوا ما أمرهم الله به وخاضوا فيما لم يأمرهم الله تعالى به كشأن الأمم السابقة قبلهم فتنازعوا واختلفوا وتنـــابزوا بالألقاب وقد نهاهم الله تعالى عن كل ذلك ، وأصبح هدف كل واحد منهم هو البحث عـــن ذات الله تعالى وصفاته التى لم يأمر الله تعالى بالبحث عنها بدلاً من الإيمان والعمل الصالح .

وأصل كل ذلك الخلاف شيء سموه صفات الله تعالى فهى أصل الـــبلاء وأم الـــداء ، فذهبت طائفة منهم اسمها المعتزلة إلى أن ذلك الذي سموها صفات هى عين الذات ولا تسمى

Scanné avec CamScanner

صفات ، وذهبت المجسمة إلى أن الذات شيء وتلك الصفات زائدة على الذات ، وذهبت الأشاعرة إلى أن تلك الصفات لا هي عين الذات ولا هي غير الذات ، ثم احتدم الخلاف بينهم فيما لا يعنى أحداً ولم يؤمر به وتبع تلك الطوائف الثلاثة التى هى أمهات الطوائف الكثير والكثير من العلماء قديماً وحديثاً فذهب ابن حزم رحمه الله تعالى إلى ما قالته المعتزلة وخالفهم فى أشياء كثيرة ، وذهب ابن تيمية إلى ما قالته المجسمة وزاد عليهم بأشياء كثيرة ، وكل يبكى على ليلاه رحمهم الله جميعاً .

والصحيح والصواب الذى ندين الله تعالى به ونشهده عليه أن نيات كل تلك الفرق والطوائف سليمة وهدفها واحد وهو (إثبات كل كمال لله تعالى ونفي كل نقص عنه وإخلاص التوحيد له وحده لا شريك له) ، وهي جميعاً مصيبة من حيث قصدها ولها أجر اجتهادها إلا أنها جميعاً مخطئة في رأيها وفيما ذهبت إليه من ذلك لدخولها فيما لا يعنيها وخوضها فيما لم تؤمر به ، وإنما كلفها الله تعالى جميعاً بالإيمان به أولاً والعمل الصالح ثانياً وترك الشقاق والخلاف فى الدين ثالثاً ولا مزيد .

ثم قال :

إنما الحق ما أتى فى كتابه أن لله ربنا الأسماء

والغريب فى الأمر أن قضية الصفات التى أثارت كل هذا الخلاف والشقاق بحثنا عنها فى كتاب الله تعالى من أوله إلى آخره فلم نجد فيه كلمة الصفة أو الصفات ولا مرة واحدة ! وبحثنا عنها فى الأحاديث الصحيحة كلها فلم نجدها ، اللهم إلا فى حديث واحد فى البخاري ورد فيه كلمة " صفة الرحمن " وليس من الحديث وإنما هى مقالة صحابي سئل عن سر كثرة قرائته لسورة الإخلاص فقال لأنها صفة الرحمن ، ولم يرو ذلك الحديث بتلك اللفظة الشاذة إلا راو واحد متهم بسوء الحفظ فأيقنا أن الحق هو ما أتى فى القرآن الكريم من قوله سبحانه وتعالى :" سبحان ربك رب العزة عما يصفون " وأيقنا أن الحق هو قوله سبحانه وتعالى :" ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها "

Scanné avec CamScanner

ولو وجدنا كلمة صفة أو صفات فى كتاب أو سنة لقلنا بها إلا أننا لم نجدها فاســـترحنا منها والحمد لله كثيراً .

ثم قال :

دون إنكـــار مـــا دعوهـــا صـــفات فهـــــي حـــــق ودونهـــــا الآراء

كوننا أنكرنا كلمة الصفات لا يعنى أننا لا نؤمن بما سمته الفرق صفات ، بل نؤمن بكل ما أخبر الله تعالى به عن نفسه سبحانه .

والخلاف الموجود فى الصفات بين الفرق والطوائف يكاد يكون خلافاً لفظيـــاً لـــولا تشبث كل طائفة منهم برأيه ومحاولة فرضه على الآخرين ، لأن كل الطوائف مؤمنة بكل مـــا أثبته الله سبحانه وتعالى لنفسه وإنما تحاول تفسيره بما يليق بالمولى سبحانه وتعالى نفياً أو إثباتاً . ومذهبنا فى ذلك كله والحمد لله تعالى أن كل ما ورد فى الكتاب والسنن الصحيحة مما أثبته الله تعالى لنفسه فهى حق كلها نؤمن بها وندين الله بها إلا أننا لا نسميها " عين الـــذات " كمـــا تقول المعتزلة ، ولا " غير الذات " كما تقول المجسمة ، ولا هى " لا عين ولا غـــير " كمـــا تقول الأشاعرة ، ولا هى " صفات " كما يقول ابن تيمية ولا هى " أسماء " كما يقول ابـــن حزم رحمهم الله تعالى جميعاً وإنما هى " المتشابهات " التى نهينا عن الخوض فيها لقصور آرائنـــا عن إدراكها وفهم حقيقة المراد منها والله سبحانه وتعالى أعلم بذلك " آمنا به كل من عنـــد ربنا " .

ولا يعني ذلك جهلاً بالله تعالى كما تزعم الفرق بل هو عين الإيمان إذ المولى ســـبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار ولا تحوم حوله الظنون والأوهام ، فآيات الأستواء وأحاديث النزول واليد والعين وما نحى منحاها – وهى قليلة جداً بالنسبة لما عداها – هي فى الحقيقة الأيـــات المتشابهات التى أمرنا أن نؤمن بها ونكل علمها إلى الله تعالى .

Scanné avec CamScanner

قال تعالى :" هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخـــر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيع فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتة وابتغاء تأويله وما يعلـــم تأويله إلا الله " وما بدأت الفتن وانتشرت فى الأمة الإسلامية إلا بتنازعها فيما تسميها العقيدة. ولم يؤثر عن أي أحد من الصحابة أو السلف الصالح خوضهم في تلك الآيـــات ، ويتحـــدى العبد الفقير من ينكر ذلك أن يأتيه بأثر واحد في خوض الصحابة أو التابعين فى تلك الآيات ، علماً بأن الصحابة رضى الله عنهم سألوا النبى عليه الصلاة والسلام عن كل شـــيء فلمـــاذا أعرضوا عن تلك الآيات إن لم تكن هى المنهية عن الخوض فيها ، قال تعالى : " والراسخون فى العلم يقولون أمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب " ولا توجد هنالـــك فى القرآن الكريم كله أية آيات متشابهات غيرها وقد نبه الله سبحانه وتعالى إلى أن تلك الآيـــات المتعلقة بذاته سبحانه وتعالى هى الآيات المتشابهات التى يحدث الخوض فيها الشكوك والظنون والأوهام والشقاق والنزاع وتسبب الضلال والزيغ عن الصراط المستقيم بأن عقب على ذلك بقوله تعالى :" ربنا لا تزغ قولبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ".

ثم قال :

وهو الحـــق مـــا لـــه مـــن شـــريك ولكـــل ممـــا ســـواه ابتـــداء
خلـــق الخلـــق رحمـــة مـــن لدنـــه وحبـــاهم مـــن فـــضله مـــا يـــشاء

سمى الله سبحانه وتعالى نفسه فى كتابه بأسماء عديدة ، وذكر النبى عليه الصلاة والسلام أن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة .

وأخص أسمائه سبحانه وتعالى أربعة وهى : " الحق " قال تعالى :" فذلكم الله ربكـــم الحق " والحق في اللغة هو الثابت الذي لا يتغير ، وقد عبرت الفرق عن ذلك بقولها الوجـــود والقدم والبقاء والحق كذلك فالحق موجود وقديم وباق لأنه ثابت لا يتغير .

Scanné avec CamScanner

ومن أسمائه سبحانه :" الواحد " قال تعالى :" وهو الواحد القهار " ، ومن أسمائه سبحانه وتعالى :" الأول " قال تعالى :" هو الأول " ومن أسمائه تعالى :" الخالق " قال سبحانه وتعالى :" الله خالق كل شيء " وقد عبرت الفرق عن كل ذلك بالمعاني المختلفة التى تسميها الصفات ، وإن كنا نتحفظ على كلمة الصفات إلا أن المعنى واحد والحمد لله فالخلاف لفظي .

ومعنى كون هذه الأربعة أخص الأسماء أنها هى التى لا يشاركه فيها غيره أبداً ، فزيد مثلاً عالم بما علمه الله وبصير وسميع بما أبصره الله إياه أو أسمعه إياه إلا أن زيداً لا يكون حقاً أبداً ولا أولاً ولا واحداً ولا خالقاً أبداً ، وإن جاز أن تكتسب بعض المخلوقات الحقية لإضافتها إلى الله سبحانه وتعالى كالأنبياء فإنهم حق لأنهم رسله تعالى والقرآن حق لأنه كتابه والساعة حق لأنها ميعاده سبحانه .

ثم قال :

وهو الخير كله لعباده شأنه العفو والرضى والعطاء
وهو الرب واللطيف بخلقه ساء ما ظنه به الجهلاء

ذكر الناظم في هذين البيتين مفهومه للألوهية والربوبية فالله سبحانه وتعالى مبدأ خير قال سبحانه :" والله خير وأبقى " فالإله رحمة ولطف وكل ذلك خير لا شر فيه أبداً قال عليه الصلاة والسلام :" والخير كله في يديك والشر ليس إليك " فإلهنا هو الذى يربينا بنعمه كما قال تعالى :" الحمد الله رب العالمين " وهو اللطيف بخلقه كما قال تعالى :" الله لطيف بعباده " ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ، ومن شأنه العفو والرضا والعطاء قال تعالى : " نبئ عبادي أنى أنا الغفور الرحيم " فقدم المغفرة والرحمة وقال تعالى :" رضى الله عنهم ورضوا عنه " وقال تعالى :" فأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ " نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا وأحبابنا جميعاً منهم بمنه وكرمه آمين .

Scanné avec CamScanner

خاتمة

ختاماً لهذا الفصل الذى تناولنا فيه جمال الخالق سبحانه وتعالى وجرنا الكلام إلى ذكـــر شيء مما خاضت فيه الفرق المختلفة ونبهنا على الحذر من ذلك والسلوك فى تلك المـــسالك الضيقة ندعو الشباب المسلم كله بقولنا :" – ديننا الذي هو دين الإسلام – ودين الأنبيـــاء جميعاً والسلف الصالح جميعاً – دين إيمان وعمل وليس دين إيمان وجدل " فالرجوع الرجوع إلى الدين الصحيح ألا وهو الإيمان بالله أولاً والعمل الصالح ثانياً وترك الشقاق فى الدين ثالثاً .

ولإخراج الأمة من بؤرة الخلافات وظلم الشقاق والنزاع التى تتخبط فيها من ألف عام ولا تهتدي سبيلاً نرى أننا نخرج من ذلك كله إلى نور الإيمان وســـعة العمـــل الـــصالح ووأد الخلاف عبر ثلاث نقاط فقط وهى:

١ – أن نتفق جميعاً على أن كل المسلمين أولهم عن آخرهم متفقون أن الله تعالى :" إله واحد لا شريك له يثبت له كل كمال ويستحيل عليه كل نقص " إذ لا تسأل مسلماً أياً كان معتقده هل لله شريك فيجيبك بنعم ولا هل يثبت لله كل كمال ويستحيل عليه كـــل نقص فيجيبك بلا .

٢ – أن نتفق أن كل الفرق التى مرت عبر تاريخ الإسلام الطويل بـــدءاً بالمعتزلـــة ومـــروراً بالأشاعرة وانتهاءاً بالوهابية كلها فرق إسلامية ونيتها سليمة وهدفها واحـــد وهـــو التوحيد الخالص لله تعالى وإنما اختلفت فى التعبير عنه فقط ، ومع سلامة نيات تلـــك الفرق كلها إلا أنها مخطئة جميعاً فيما ذهبت إليه من ذلك لأنها خاضت فيما لم تؤمر به وبحثت عن ما لا تدركه وانشغلت عن الواجب ولها أجر اجتهادها إن شاء الله تعالى .

٣ – ألا يتخذ مفهوم أي طائفة من تلك الطوائف كمنطلق للدعوة لأن كل واحـــدة منـــها متشبثة برأيها وهى غير قابلة للتنازل عنه وإنما تحاول فرضه على الآخـــرين طوعـــاً أو

Scanné avec CamScanner

كرهاً . وإنما تتخذ تلك المفاهيم إن أبقيت عليها كسلاح لدحض ورد شبهات أعـــداء الدين ولتتول ذلك طائفة مختصة من المسلمين .

وأسأل هنا كل الطوائف والفرق جميعاً في نهاية كل ذلك هذا السؤال المتواضع وهو :" ماذا جنينا في ألف عام وماذا سنجنيه في ألف عام آخر من البحث والخوض والنزاع فيمـــا لم نؤمر بالبحث عنه والخوض فيه إلا الشقاق والاختلاف والتقاتل والتنازع والتخلف والتنـــابز بالألقاب وقد نهانا الله سبحانه وتعالى عن كل ذلك !! "؟

فدعو ذلك جانباً وتعالوا جميعاً لنجرب " دين الايمان والعمل الصالح وترك الـــشقاق والخلاف " ولو عاماً واحداً فقط لنستعيد زمام الكون ونقود الدنيا بزينة ديننا وجماله إن شاء الله تعالى .

" إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب "

Scanné avec CamScanner

الباب الثاني

فى جمال الكون

من زينة الله سبحانه وتعالى وجماله هذا الكون الجميل الذى أبدعه بحكمته ! فالكون بما فيه من الكائنات ما هى إلا مرآة يبدي فيها الإله الجميل من مظاهر جماله وجلاله مـــا يـــشاء لعباده قال تعالى :" قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده "، [والكون هو كل ما قال الله له كن فكان] ، وهو العالم والخلق جميعاً علويه وسفليه وهو واسع جداً لا يعلم مداه إلا الله تعالى إلا أن كل ذلك جزء من جمال الله سبحانه وتعالى وزينته قال تعالى :" أفلم ينظـــروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها " وقال تعالى :" إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها " وقـــال تعالى :" والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة " والأرض التى نعيش فوقها بما فيها من شتى المخلوقات والكائنات الحية وغيرها مما اكتشفناه أو لم نكتشفه بعد ما هى إلا جزء صغير مـــن العالم الواسع بل يكاد كل ذلك لا تساوي شيئاً فى ملك الله تعالى ،صح عن النبى صـــلى الله عليه وآله وسلم قوله :" لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء " .

قال الناظم :

زينـــة الكـــون مظهـــر مـــن جمالـــه ... فيـــه يبـــدي لخلقـــه مـــا يـــشاء

قـــد كـــساه بكـــل مـــا يـــشتهيه ... أهلـــــه فيـــــه إنـــــه المعطـــــاء

كسى الله تعالى كونه بحلل جلاله وجماله وزينه بكل ما يشتهيه عباده قال تعالى :" الذى أحسن كل شيء خلقه " وقال تعالى :" صنع الله الذى أتقن كل شيء " وقال تعالى :" بـــديع السموات والأرض " وقال تعالى " وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنـــات مـــن أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه !!!! ".

Scanné avec CamScanner

إلى غير ذلك من الآيات البينات الواضحات المحكمات التى تلفت أنظارنا جميعاً إلى جمال الخلق وعظمة الخالق وجلاله وجماله سبحانه وتعالى .

وقد وضع الله سبحانه بفضله وكرمه كل ما يحتاج إليه الخلائق فى الكون بل وزادهم فوق ما يحتاجون إليه مما يعلم هو وحده الحكمة من خلقه لها قال سبحانه وتعالى :" قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين " .

هذا وما نراه فى الدنيا من جمال المخلوقات المختلفة من طيور وزهور بألوانها البديعة وأشكالها الرائعة ما هى إلا جزء يسير من جمال الحياة الدنيا ، وبعد ذلك فى الأخرة وفى الجنة مالا يعلمه إلا الله تعالى من الزينة والجمال قال عليه الصلاة والسلام :" فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قط ".

ثم إن كل ذلك الجمال الدنيوي والأخروي بعمومه ما هو إلا جزء يسير وجانب صغير من جمال الخالق سبحانه ، فالله أجمل من ذلك كله بكثير وتعالى قال تعالى :" وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " وقال تعالى :" للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " والزيادة هى النظر إلى وجهه الكريم الذى يسكر الراءون والمحبون برؤيته فيغشى عليهم أعواماً لجلاله وجماله سبحانه نسأل الله الكريم المنان بمنه وكرمه أن يمتعنا وأحبابنا جميعاً بالنظر إلى وجهه الكريم آمين .

ثم قال :

وتولىّ بحكمة قسم رزق وذوو الرزق فى الحقوق سواء

[الرزق هو ما قسمه الله تعالى لكل مخلوق فى حياته]،ولا يخلو منه مخلوق أبداً قال تعالى :" وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين " ولم يذكر سبحانه أهل السماء وإن كانوا مرزوقين لأن أهل الأرض هم الذين يهمهم قضية الرزق ، وقد قسم الله تعالى الرزق بين الخلائق وضمنها لهم قبل خلقهم جميعاً ،

Scanné avec CamScanner

صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قوله :" إن الله كتب مقادير الخلق وما كـــان ومـــا يكون قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة "، وقال عليه السلام :" إن روح القـــدس نفـــث فى روعي أن لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب " فـــذكر عليه الصلاة والسلام الرزق وبين أن جماله وزينته فى حسن الطلب . ولا يعنى ذلك القعـــود وانتظار الرزق وإنما ينال الرزق بالأخذ بالأسباب وهو معنى قوله عليه الـــسلام " أجملـــوا فى الطلب " ، وقال تعالى :" فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه " فقدم السعي على الزرق .

والرزق قسمان : رزق عام وزرق خاص فالرزق العام هو الذى يشترك فيـــه جميـــع الخلائق كنعمة الأرض والسماء والشمس والهواء والحياة والموت ، والكائنات فيـــه ســـواء ، والزرق الخاص كالصحة وطول العمر والمال والجاه والكائنات فيه متفاوتة حـــسب الظـــاهر المرئي قال تعالى :" والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق " إلا أنهم فى الحقيقة مستوون لأن عدالة الله تعالى تقتضى ذلك فسعادة الفقير العامل بقبض أجرته لا تقل عن سعادة الغني بإنشاء عمارته ، ولكن ليس الرزق محصوراً فى المحسوسات كما يظن الناس إذ قد يستعيض الفقـــير عن ثروة الغني صحة فى بدنه أو طولاً فى عمره أو هدوءاً فى نومه أو زوجة صـــالحة أو ذريـــة طيبة بينما يحرم الغنى من ذلك كله ، فالرزق مستوٍ في الحقيقة إلا أنه متفاوت فى الظاهر فقط ، وإنما اقتضى ذلك التفاوت حكمة الله سبحانه وتعالى وحسن تدبيره لخلقه إذ لو عمهم جميعـــاً الاستواء فى الرزق حسب الظاهر لاستحالت النعمة إلى نقمة قال تعالى :" أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجـــات ليتخـــذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وســـرراً عليهـــا يتكئون وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والأخرة عند ربك للمتقين ".

ثم قال :

واصـــطفى آدمـــاً لحمـــل عهـــوده وبنـــوه مـــن بعـــده خلفـــاء

Scanné avec CamScanner

[آدم عليه السلام هو أبو البشر جميعاً] ، قال تعالى :" يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً " فبعد ما خلق الله الخلق أولاً وقسم الرزق بينهم ثانياً اختار منهم من يتولى أمرهم ويكون المسئول عنهم ثالثاً فكان أبونا آدم عليه السلام قال تعالى :" وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة " ، نعم خلق الله آدم بيديه ونفخ فيه من روحه وعلمه الأسماء كلها وأسكنه فى الجنة ليدربه على وظيفته التى وكلها إليه ، ثم أخرج ذريته من ظهره جميعاً وأخذ عليهم العهد والميثاق ألا يشركوا به شيئاً وأشهدهم على أنفسهم بذلك فأقروا جميعاً بربوبيته سبحانه وتعالى ، فاختارهم خلفاء فى الأرض ليصلحوا فى الأرض ولا يفسدوا فيها قال تعالى :" هو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم " فيتولى بعض الناس أمر الناس ويتولى بعضهم أمر الأبقار وبعضهم أمر المزارع وبعضهم أمر الأرض وهم متفاوتون فى ذلك وهو المقصود بقوله تعالى :" ورفع بعضكم فوق بعض درجات " وقد يلي الواحد منهم الكثير من ذلك ويجمع بين الأشياء المختلفة التى يتولى أمرها ويحسن تدبيرها ، ويأجرهم الله جميعاً بقدر اصلاحهم لما استخلفوا عليه وقاموا برعايته ، قال عليه الصلاة والسلام :" كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " .

ثم قال :

حبذا الكون لو يكون مسوساً من ذوى الرأى منهم الصلحاء

ميزة أبينا آدم ووظيفته الأولى التى بها أكرم فى الملأ الأعلى وبها استحق الخلافة على الكائنات جميعاً فى الملأ السفلى هى العلم ، [والخلافة هى السياسة الكبرى ، وهى تولى أمر الكائنات السفلية جميعاً والسعى فيما يصلح أمرها]، وهى مسئولية كبيرة أسندها الله تعالى إلى آدم وبنيه من بعده وإليها دعا الأنبياء والمصلحون فى الأرض جميعاً ، ولو أن الكون الذى كساه الله بكل جميل بقيت مقاليده بيد أبناء آدم الذين فهموا الحكمة من وجودهم على

Scanné avec CamScanner

ظهر الأرض – وهى سياسة الكائنات والسعى فيما يصلح العالمين جميعاً – لرأينا شيئاً من سعة الآخرة في ضيق الدنيا ولعشنا شيئاً من جمال الجنة قبل الموت ولكن هيهات هيئات .

ثم قال :

يتقـــون الإلـــه حـــق تقاتـــه وعلـــى الخلـــق هـــم لـــه أمنـــاء
يتمنـــــون للأنـــــام جميعـــــاً أن يـــرى الأمـــن زانهـــم والرخـــاء

[التقوى هى فعل ما أمر الله تعالى به وترك ما نهى عنه] ، ولا يأمر الله تعالى إلا بما هو خير ولا ينهى إلا عن ما هو سيء ! والطائفة التى أسند الله إليها زمام الكون وتولي أمـــر الكائنات وظيفتها أمران : الأمر الأول : تقوى الله سبحانه وتعالى والوقوف عنـــد أوامـــره ونواهيه إذ بدون ذلك لا صلاح فى الأرض أبداً ، وتعتبر هذه الطائفة نفسها مستأمنة علـــى الخلق ومسئولة عنهم أمام الله تعالى ، والأمر الثانى : السعى فيما يصلح أمر العـــالمين جميعـــاً بحيث يعمهم الأمن والرخاء والعيش بسلام واطمئنان قال تعالى :" ورحمتى وسعت كل شيء " وقال تعالى :" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " ولم يقل تعالى وما أرسلناك إلا رحمة للمـــسلمين أو للناس أو للحيوانات وإنما رحمة للعالمين بكل ما في العالم من الحيوان والجماد ، وتلك رسالة الأنبياء جميعاً وهدف المصلحين فى الأرض .

ثم قال :

ولعمـــري مـــا أفـــسد الكـــون إلا فئـــة كـــل همهـــا الاعتـــداء

[الفساد هو كل ما يضر بنظام الكون ويؤذى الكائنات]وقد نهى الله تعالى عنه بقوله :" ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها " "والله لا يحب الفـــساد " [والاعتداء هو مجاوزة المرء لحقه واستيلاءه على حقوق الآخرين] وقد نهى الله تعالى عنه بقولـــه :" ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين " وهو نوعان : الاعتداء على الحق العام وهى الكفر بالخـــالق سبحانه إذ بدون الاعتراف بوجوده لا يراعى الخلق بعضهم بعضاً أبداً لعدم وجود من يحاسبهم

Scanné avec CamScanner

على أعمالهم ، فمن كفر بالله سبحانه وتعالى فقد اعتدى على حق خلقه جميعاً ، والاعتداء على الحق الخاص وهو نوعان : اعتداء المرء على حق نفسه ويسمى سفهاً وإسرافاً قال تعالى :" وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين " واعتداء المرء على حق غيره وهو الظلم والبغي والفساد وقد نهى الله تعالى عن جميع ذلك بقوله :" والله لا يحب الظالمين " وقوله تعالى :" ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين " ، وقال عليه السلام :" الظلم ظلمات يوم القيامة" نسأل الله سبحانه وتعالى بمنه وكرمه السلامة .

ثم قال :

تتمنى لنفسها كل خير ولها وحدها فقط ما تشاء

الاعتداء الذى ذكرناه بشتى أنواعه هو ضد ونقيض الاصلاح فى الأرض ، فبينما منهج آدم عليه السلام وأبناؤه المصلحون المستخلفون فى الأرض هو السعي فيما يصلح العالمين جميعاً اتخذت طائفة من أبنائه سبيلاً ومنهجاً آخر وهو الاعتداء بشتى أنواعه وتلك منهج ابليس الذى أبى أن يعطى آدم حقه فى السماء حسداً له لأن لا يرث الأرض منه ويستخلف عليها من بعده ، وذلك بعدما أفسد إبليس وذريته فيها وسفكوا الدماء قال تعالى :" قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء " وما ذلك إلا لعلم الملائكة بالفساد السابق الذى قام به ابليس وجنده فى الأرض قبل أبينا آدم عليه السلام ، وهذه الطائفة التى اتبعت إبليس في منهجه هى التى لا تعرف فى الحياة غير نفسها ، وتتمنى لنفسها كل خير ولها الحق فى ذلك لو اكتفت به إلا أن المشكلة معها أنها لا تكتفى بذلك وإنما همها كل خيرات العالم بما في ذلك من حقها وحق غيرها ، وهى لا تعترف بالآخرين ولا تعتد بهم فضلاً عن حقوقهم .

ثم قال :

همها حظها وحظ سواها وترى الناس أنهم سفهاء

هذه الطائفة التى سلكت هذا السبيل السيء هى التى ذهبت برونق الكون وجماله وزينته وحولت حياة الناس إلى جحيم الضعفاء وجنة الأقوياء ، فرغم كون العالم مليئاً

Scanné avec CamScanner

بالخيرات والثروات والبركات التى وضعها الله فى الكون والتى لا نهاية لها وهى تكفى العـــالمين جميعاً وتزيد عن حاجاتهم إلا أن الأيادي السيئة هى التى تصرف الحقوق عن أصحابها ، فترى انساناً واحداً من الناس يأخذ نصيب عشرة أو مئة أو ألف من الناس ، يأخذ ذلك من الأرض والمال وغير ذلك مما وصلت إليه يده الآثمة ، والآخرون يموتون حوله جوعاً وعطشاً وعريـــاً وهو لا يبالى بذلك رغم كون ما في يده تزيد عن حاجاته بكثير ، وما ذلك المـــسلك الـــذى سلك فيه هذه الطائفة المعتدية إلا لكونها لا ترى نفسها مستخلفة على الأرض ومستأمنة على العالمين .

وهذه الطائفة المفسدة المعتدية التى ذكرناها هى التى تدير العالم قديماً وحديثاً إذ الـــدنيا دار ابتلاء ومحن قال تعالى :" ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل " وقال تعـــالى :" وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون " وقال تعالى :" وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء " .

وقد سعت الأنبياء جميعاً بحكمتها لمعالجة قضية الاعتداء هذه لأنها المشكلة الكبرى فى العالم وهى المشكلة التى لم يجد الناس لها حلاً عبر التاريخ الطويل ، فدعت الرسالات السماوية جميعاً إلى إخراج الزكاة وصدقات التطوع ورعاية الفقراء والمساكين والمحتـــاجين والـــضعفاء ليتقاسم الناس الحقوق وليستعيد الكون شيئاً من زينته وجماله إن شاء الله تعالى .

Scanné avec CamScanner

الباب الثالث

فى جمال الحياة

زينة الكون وجماله هى الحياة ! فالكائنات الحية أجمل من سواها ، وما ذلك القدر الزائد لها من الزينة والجمال إلا لحياتها إذ هى التى تأخذ الأشكال والصور والألوان المختلفة عبر مسيرة الحياة المتنوعة قال تعالى : " إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس " فذكر سبحانه وتعالى الماء والسماء والأرض وهى من الجوامد ثم ذكر النبات وهى من الجماد أيضاً إلا أنها تنمو ثم ذكر الناس والأنعام وهى الكائنات الحية وأخبر سبحانه وتعالى أن الأرض إنما تتزخرف وتتزين بنشوءالحياة فيها عبر الكائنات الحية والجمادات النامية .

فالكائنات بالنسبة للجمال على ثلاثة أنواع ، فأجملها جميعاً الكائنات الحية إذ هى التى تمر بالمراحل المختلفة وتتشكل بالأشكال المتعددة الجمال ويزينها حياتها وتحركها ، ويليها فى الجمال الكائنات النامية وهى النباتات وما شاكلها فإنها تأخذ صوراً مختلفة إلا أنها ينقصها جمال التحرك ، وأقلها جمالاً الجمادات وهى الكائنات غير الحية كالشمس والقمر والنجوم والجبال ، وقد يكون بعض ذلك جميلاً وخاصة إذا أخذه الآدمي وحركه بيديه وكساه صوراً من جمال فطنته كالذهب والفضة .

إنما الخلق فى الحياة كماء ... أنزلته على النبات السماء

هى خضر مع الصباح جميل ... ومع الليل لونها صفراء

[والحياة : هى الفترة الزمنية التى يأخذها كل كائن حي فى تحركه على الأرض قبل موته وسكونه] وهى قسمان : الحياة الخاصة وهى المذكورة فى التعريف والحياة العامة [وهى مدة بقاء الدنيا] وهى المذكورة فى الآية الكريمة ، ثم إن الحياة بقسميها سريعة

Scanné avec CamScanner

الزوال بالنسبة للدار الآخرة قال تعالى :" وإن الدارة الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون " ورغم كون عمر الدنيا قصيراً بجنب الآخرة إلا أنها طويلة جداً بالنسبة لنا ولا يعلم طولهـــا إلا الله سبحانه وتعالى قال تعالى :" ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله " وقد صور النبي عليه السلام طول الحياة الدنيا فى حديث الـــساعة عندما قال : بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه السبابة والإبهام " فإذا كان النبي عليه السلام قال ذلك وقد مر الآن على بعثته حوالي ألف وخمسمائة عام فما مضى قبله من آلاف السنين لا يعلمه إلا الله إذ أخبر أن الذى بقى نسبته إلى الماضى ضئيلة جداً ، إلا أن ســـنة الله تعالى فى خلقه أن أبناء آدم كلما كثروا وملئوا الأرض وفتحت لهم خيراتها عاثوا فيها فـــساداً وصنعوا هلاكهم بأيديهم فيهلكون جميعاً لتستأنف الحياة عبر طائفة محدودة تنجوا من الهلاك ، وخير مثال شاهد على ذلك فى حياتنا المعاصرة هى تلك السموم التى صنعتها الطائفة المفسدة فى الكون بيدها وسمتها بالسلاح النووي ، وهى التى ستتسبب فى واحد من شيئين إما فى فناء الكائنات كما يتوهمون ولا يحدث ذلك إذ الكائنات أجلها بيد خالقها ، وإما فى إعادة الحيـــاة إلى مراحلها البدائية وهو ما سيحصل فعلاً ، وكل ذلك مـــذكور فى الآيـــات والأحاديـــث الصحيحة إلا أن الكلام فيها يطول . وقد وهم الكثيرون ممن يظنون أن الناس لم يبلغوا هـــذا المستوى من الكثرة والقوة والتطوروالعلم إلا الآن فقط قال تعالى :" أولم يـــسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشـــد قـــوة وآثـــاراً فى الأرض " وقال تعالى : " وعمروها أكثر مما عمروها "وقال تعـــالى "فلماجـــاءتهم رســـلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون فلما رأو بأسنا قالوا أمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم بأسهم لما رأو بأسنا سنة الله الـــتى قـــد خلت في عباده " وقوله تعالى :" سنة الله التى قد خلت في عباده هو محل الشاهد فى ذلـــك " .إلا أن حياة كل أمة وجيل من أجيال الدنيا تأخذ صوراً مختلفة فى القوة والنشاط والعلـــم ، وكل تلك المدد فى طول الآخرة لا تساوى مثقال ذرة إذ اليوم الواحد منه بخمسين ألف ســـنة فسبحان الذى يرث الأرض ومن عليها وإليه ترجعون .

Scanné avec CamScanner

قال الناظم :

وأرى العمــر والحيــاة ازديــاداً ... في أمــان ومــالهن انتــهاء

لكل كائن حي طبيعة حياته المختلفة عن سائر الكائنات ، والأمنية والرجاء والأمل هى سر الحياة إذ لا يمسك بن آدم فى حياته بعد الله تعالى إلا الأمل ورجاء تحقيق أهدافه فى حياته قبل موته ومتى فقد الإنسان الأمل فى ذلك كره الحياة وأصبح الموت أحب إليه وتمناه بكل قـوة ، ودليل ذلك أنك لا ترى إنساناً أبداً ما دام سليماً فى عقله معافى فى بدنه إلا وله أمنيات كثيرة يتمنى حصولها ويسعى فى تحقيقها ولا يرى لحياته معنى بدونها ، وبقدر كثرة أمنياتــه يــزداد حرصه على الحياة وتقديره لروحه ، [والأمنية والأمل هى الرغبة فى حصول المراد مــع السعي فى تحقيقه]وهو مشروع فى الإسلام مالم يتجرد عن السعى ، لأن الأمل بدون العمل مجرد ظنون كاذبة وسراب يلهث وراءها الذى يغر نفسه والعياذ بالله تعالى .

وكما أن الأمل هو الذى يمسك الناس فى حياقم فإن اليأس هو عكسه وهو الذى يقتلهم وإن لم يموتوا ، ولذلك نهى الله عنه بقوله تعالى :" ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون " نسأل الله تعالى أن يحقق رغباتنا جميعاً بمنه وكرمه آمين .

ثم قال :

حلقــات الحيــاة للنــاس خمــس ... أجملتــــهن آيـــــة غــــراء

يلعــب المــرء ســبعة فى صــباه ... ثم يلـــهوا بمثلـــها مـــا يـــشاء

ويلـــيهن زينـــة وافتخــــار ... ثم يلهيــــه أهلــــه والثــــراء

مراحل الحياة بالنسبة لأبناء آدم تختلف عن سائر الكائنات الحية فبينما تأخذ سائر الكائنــات الحية مرحلتين اثنتين فقط فى الحياة ، وهما مرحلة النمو والكبر أولاً ثم مرحلة الإنتاج والتوالد ثانياً ، تجد أن أبناء آدم يستمتعون من جمال الحياة ويتزينون بخمس مراحل مختلفة قال تعــالى :" إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيــث

أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور " وتأخذ كل مرحلة من تلك المراحل من عمر الإنسان سبع سنوات ولكل منها جمالها وزينتها ورونقها وبهجتها ، وبين كل مرحلة وأخـــرى سنة للتحول والانتقال من حالة لأخرى ، وهى :

١ – مرحلة اللعب : [واللعب هو الانشغال بكل ما تميل إليه النفس سواء نفـــع أو ضر] ، وهى مرحلة الطفولة وتمر هذه المرحلة في ذاتها بأطوار مختلفة ولكل من تلـــك الأطوار جمالها بدءاً بمرحلة ما بعد الولادة ثم الرضاعة ثم الحبو ثم المشي ثم التدرب على الكلام وكثرة البكاء إلى آخرها . والإنسان فى هذه المرحلة لا يكاد يمتاز عـــن ســـائر الكائنات الحية إلا بصورته فقط فهو لا يعرف شيئا مما يضره أو ينفعه قال تعالى :" والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً " إلا أنه يمتاز ببراءة الطفولة التى هـــى الفطرة فتراه لا يكذب ولا يضمرسوء الاحد وإنما يضحك مع كل الناس وإذا ســـألته أين أبوك أخبرك بمكانه حقيقة اللهم إلا أن يلقنه أبوه الكذب بكونه خارج البيت مثلاً ويظهر ذلك على فلتات عينيه عند إخباره إياك بما يراه كذباً ! ولا يحقد ولا يخـــون وتلك سنة الإسلام التى دعا الله الناس جميعاً للرجوع إليها بعد الكبر والتكليف قـــال تعالى :" فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون " .

٢ – مرحلة اللهو [واللهو هو انشغال الانسان بشيء ما مما يشغله عن الواجـــب] وهى مرحلة التمييز ، والفرق بين اللعب واللهو هو أن اللعب يكون بكل شيء وأما اللهو فإنه يكون بشيء معين ، ففي المرحلة الأولى يلعب الطفل بكل ما وصلت إليـــه يده دون أن يكون له هواية فى شيء بعينه ، وأما المرحلة الثانية فيميـــز بـــين الُّلعـــب المختلفة ويكون له هواية معينة يولع بها وقد يكون جيداً وقد يكون غير ذلـــك وقـــد حرص النبى عليه الصلاة والسلام فى أن يوجه الطفل فى هذه المرحلة بالذات إلى شعائر

Scanné avec CamScanner

الدين ليتربى عليها ولتكون جزءاً من هوايته قال عليه الصلاة والـــسلام :" مـــروهم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها –ضرباً غير مبرح – لعشر " . وأنا كنت مولعـــاً في هذه المرحلة بالذات بكرة القدم وهذه المرحلة هى مرحلة التمييز وفيه يصنع مـــستقبل الطفل بيد الأبوين عبر التربية الجيدة .وصحبت في تلك الفترة الأستاذ الفاضل / عبد الكريم يحيى الجيري فكان نعم العون جزاه الله خيراً .

٣ – مرحلة الزينة [وهى مرحلة البلوغ والتكليف] –والفقهاء مختلفون في سن البلوغ من خمسة عشر إلى تسعة عشرة – وسمى القرآن الكريم هذه المرحلة بالزينة لأنها أجمل المراحل كلها وهى مرحلة الفتوة الذى يتبين فيه شخصية الإنسان وطبيعته وفيه يولع كل من الغلام والجارية بالتزين بأحسن الملابس والظهور بالصورة الجميلة والمنظـــر الأنيق ويحاول كل منهما إثبات وجوده ولفت الأنظار إليه بكل قوة فتراه يسرح شعره يميناً وشمالاً ويلبس أحسن الملابس ويتشبه بالكبار وهو صغيرا وقد حرص النبى عليـــه الصلاة والسلام على هذه المرحلة إذ في يد هذه المرحلة بناء الأمم ومستقبل الأجيـــال القادمة بما انطوت عليه من تحصيل العلم والإقبال على العمل فيرقون أيمـــا رقـــي أو الخمول والمخدرات واللعب واللهو فينحطون أيما انحطاط . وفي أوائل هذه المرحلة من عمرى بحمد الله تعالى وحسن توفيقه حبب إلي طلب العلم الدينى خاصة ، وكنت أقود فريقاً من كرة القدم فجئت إليهم فجأة وأخبرتهم بأننى سأغادر العاصمة وأســـافر إلى القرى لحفظ القرآن الكريم ، فحزن أحبابي جداً وسر أعدائى لإستراحتهم من شر كبير .لأننى كنت أحب الخصام وأجيده وآمر وأنهى فى الفريق المسكين .

٤ – مرحلة التفاخر [وهى مرحلة الشباب والقوة] وهى أهم المراحل وسمـــاه القـــرآن الكريم مرحلة التفاخر لأن كلاً من الشباب يفخر بإنجازاته التى يسابق فيهـــا زملائـــه كطلب العلم والتجارة وغيرها ، وقد حض النبى عليه الصلاة والسلام على الاعتناء بتلك المرحلة وذكر أن المرء يسأل عنها يوم القيامة وعما أنجزه فيها وعما أفنى تلـــك

Scanné avec CamScanner

وعما أفنى تلك المرحلة فيه وهى مرحلة التحصيل التى يسئل عنها المرء يوم القيامة قال عليه السلام (لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع) منها عن شبابه فيما أبلاه وفي هذه المرحلة مستقبل الأمم والأجيال القادمة بما تنطوى عليه من تحصيل العلم والعمل أو الخمول والكسل .

المرحلة الخامسة والأخيرة (مرحلة التكاثر فى الأموال والأولاد ، وهى مرحلة الرجولة والقيادة حيث يكون الجميع قد اكتمل عقله وفهم الحياة فهماً جيداً وتزوج وأنجب الأولاد وجمع ما تيسر من المال ، وغالباً لا يحقق الإنسان بعد هذه المرحلة مالم يحققه فيها إذ فيه يبلغ أشده ، لان كل مرحلة من المراحل الخمسة قدرها سبع سنوات ويقضى الإنسان سنة بين كل مرحلة وأخرى للتحول إلى أسلوب جديد من الحياة وتلك خمس سنوات تضم إلى خمسة وثلاثين فالمجموع أربعون عاما وبعدها يخلع الإنسان ثوب الجمال ليرد إلى أرذل العمر . قال تعالى: " ووصينا الإنسان بوالديه حسنا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين ".وقال تعالى: " ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون " وقال تعالى:" ومن من يرد إلى أرذل العمر ".

وقد صور القرآن الكريم تلك المراحل كلها فى بضع كلمات ثم ختمها بقوله سبحانه :" كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا (بشتى مراحلها السابقة فى جنب الآخرة) إلا متاع الغرور ".

الذين والجمال

Scanné avec CamScanner

نسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يجعلنا وأحبابنا جميعاً ممن طال عمرهم وحسن عملهم وأن يجيرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

ثم قال

وهى أيضاً حياة حس ومعنى ولكل من عنصرينا اشتهاء

قلّ أن تجد شيئاً فى الحياة الدنيا إلا ومنه حسي ومعنوي ، ولا يبعد أن يدخل ذلك فى عموم قوله تعالى :" ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون " فالإنسان مركب من عنصرين أحدهما حسي وهو الجسد والآخر معنوي وهو الروح وهو أشرف من الأول وأسبق منه وأبقى لأنه من عالم الأمر وقد كان قبل الجسد ويبقى بعده ، ولكل من ذينك العنصرين حياته الخاصة ورغباته ، والإسلام دين وسط يعطي كل ذى حق حقه ولذلك جمع بينهما فى اتّزان دقيق لا إفراط فيه ولا تفريط قال تعالى :" ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار " فالدنيا بما فيها من ملذات هى نصيب الجسد والعمل للآخرة والاستعداد لذلك والتعب فيه هى نصيب الروح ، وقال عليه السلام لقوم من الصحابة هموا بترك لذات الجسد نهائياً والتفرغ لمتع الروح " ألا إنى أعلمكم بالله وأخشاكم له إلا أننى أقوم الليل وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى ".

ثم قال :

وحياة الأرواح فيها ارتفاع إذ من العلو أصلهن الضياء

ومنى الروح فى الحياة ثلاث وهى العلم والتقى والفناء

قال تعالى :" ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " فحقيقة الروح لا يعلمها إلا بارئها سبحانه وتعالى ، وليس دخاناً أو غباراً أو أي شيء مما ذكره أصحاب الظن والتخمين الذي نهى الله تعالى عنه ، إلا أن النصوص أخبرتنا أن منشأ الأرواح العالم العلوي ولذلك شرف أبونا آدم وارتفعت قيمته على سائر المخلوقات السفلية التى نفسها وجسدها جميعاً من العالم السفلي .

Scanné avec CamScanner

إلا أن أبناء آدم عليه السلام يعيشون فى العالم السفلي حاملين لشعلة من العالم العلوي وهـــى أرواحهم لو أعطوها حقها من الحياة !!

وحق الروح وغذاؤه ثلاث :

أولها :متعة العلم أياً كان نوعه إذ هو أول شيء ذاقه ابن آدم فى الملأ الأعلى ، وللعلم متعة فى روح العلماء لا تدانيها أي متعة ، كان بن حزم رحمه الله تعالى سجيناً ومهددا بالقتل فى أية لحظة وكان يفكر فى مسألة عويصة قبل السجن فوجد لها حلاً وهو سجين فأنـــسته تلك اللذة كل شيء من السجن وأهواله ، ذكر ذلك فى كتابه التقريـــب رحمـــه الله تعالى ، وكتب بن تيميه رحمه الله تعالى فى السجن فتاواه وكفاه فخراً موته فيها .

وثانيها : متعة العبادة وللروح لذة فى العبادة لا تدانيها أية لذة وهى أحلى من متعة العلم بكثير بل العلم مساعد على العبادة قال تعالى :" إنما يخشى الله من عباده العلماء " وقال عليه السلام :" وجعلت قرة عينى فى الصلاة " ، وبقدر إكثار المرء من العبادة يزداد حباً لها إن كان مخلصاً .

وثالثها : متعة الفناء فى الله وهى اللذة الكبرى عند أربابها إذ فيها الغيـــاب عـــن المخلـــوقين والانغماس في حضرات القدس ومراتب الأنس بالله سبحانه وتعالى ، وهى أعلى مـــن العبادة إذ العبادة هى التى توصل إليها وهى مرحلة الأنس بالله والفناء فى جمال ملكـــه وجلال ملكوته وجبروته ، وهى مقام الأنبيـــاء والمرســـلين والـــصديقين والـــشهداء والصالحين والأولياء العارفين بالله تعالى نسأل الله سبحانه وتعالى بمنه وكرمه أن يجعلنـــا منهم . وهذه المرحلة الأخيرة هى المسماة بالحقيقة عند أرباب الـــسلوك والتـــصوف الحقيقيين ، وقد أنكرها كثير من جهلة العصر لجهلهم بالله ســـبحانه وتعـــالى ، روى البخاري بسنده إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لصحابي اسمه حارثة رضى الله عنه " كيف أصبحت يا حارثة ، قال أصبحت مؤمناً قال عليه السلام إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ، قال أصبحت كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً وكأني أنظر إلى

Scanné avec CamScanner

أهل الجنة فى الجنة يتنعمون وإلى أهل النار فى النار وهم يعذبون ، قال عليه السلام لقد عرفت يا حارثة فالزم " . إذن فهنالك مرحلة الحقيقة والعرفان بالله والملازمة وقد أنكروا كل ذلك لجهلهم بالسنن الصحيحة ومعانيها ، فهذا الصحابي الجليل يعيش بين الناس بجسده إلا أنه فى الملأ الأعلى بروحه وتلك هى الحقيقة وقد أقره النبى على ذلك وأمره بملازمته ، وتلك حقيقة التصوف والسلوك بعيداً عن البدع والخزعبلات والأضرحة والأغاني ، والحقيقة المزيفة التى يدعي صاحبها أنه بوصوله إليها تسقط عنه التكاليف ، وإنما تلك حقيقة منهج إبليس وقد تناولنا كل ذلك بالتفصيل فى كتابنا " تحفة الأحباب فى شرح لامية الطلاب " والحمد لله كثيراً ، وهذه اللذات والمتع الثلاثة هى غذاء الروح لأنها معنوية كلها والروح معنوي مثلها .

ثم قال :

وحياة الأجساد فيها انسفال ... إذ من الطين أصلها الظلماء

يشتهى الجسم فى الحياة ثلاثاً ... وهى النوم والغذاء والنساء

الجسد هى الطينة التى خلق منها أبونا آدم عليه السلام ، ويحملها أبناؤه بعده كسلالة أصلها طين قال تعالى " وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين " وروى البخاري أنه عليه السلام قال " لما أراد الله خلق آدم بعث ملكاً فقبض من أجزاء الأرض " فالجسد على العكس من الروح أصله العالم السفلي وهو كثيف حسي بينما الروح لطيف معنوي ولذلك يصعب العدل بينهما فى معركة الصراع على النفس وشهواتها قال تعالى " قد افلح من زكاها – بصفاء الروح – وقد خاب من دساها – في كدرات الجسد والطين – " .

وكما أن لذات الروح ثلاث فإن لذات الجسد أيضاً ثلاث صنع الله الذى أتقن كل شئ .

أولاها : الطعام والشراب أياً كان نوعه إذ هو أول شيء ذاقه ابن آدم فى الملأ السفلى ، وللطعام والشراب متعة لا تدانيها متعة بل هى قوام الجسد التى بدونها لا يشتهى شيئاً

Scanné avec CamScanner

قال تعالى :" وكلوا واشربوا ولا تسرفوا " وقال عليه الصلاة والسلام " نحن قـــوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لم نشبع " .

وثانيتها : النوم وهو أحلى من الطعام والشراب بل هما مساعدان عليه ، فمتى امتلأ بطن ابن آدم نام وخاصة فى الليل ، والمؤمن قليل الطعام قليل النوم ، قال تعالى :" كانوا قلـــيلاً من الليل ما يهجعون " وذهب ابن حزم رحمه الله تعالى فى الطوق إلى أن النوم هو غذاء الروح تبعاً للقدماء فى القول بذلك وهم مخطئون فى ذلك جميعاً ، وإنما تصفوا الـــروح بنوم الجسد لأنه يستريح من ثقله ، ولذلك قد يرى المرء وهو نائم مالا يتخلف أبـــداً لأنه ينظر بروحه لا بجسده .

وثالثتها : لذة الجماع والنساء وهو أحلى الثلاثة وأعلاها بل ما قبله من المتع مساعدة عليه إذ الإنسان بدون الأكل والنوم لا يستسيغ جماعاً .

وشتان بين الروح والجسد فالإفراط فى لذات الجسد الثلاثة تضر بالجسدوتسبب المـــرض أو الوفاة بينما الإفراط فى لذات الروح تزيده جمالاً كمالاً !!

ثم إن لذات الجسد تشترك فيها الكائنات السفلية جميعاً بل لا همّ لها سواها فكل البهائم تأكل وتشرب وتنام وتجامع ، بينما لذات الروح خاصة بالآدميين فقط ، وبذلك استدل من يـــرى أن سائر الكائنات لا روح لها وإنما لها النفس فقط وسيأتى مزيد بيان لذلك إن شاء الله تعالى . وبذلك انتهت اللذات الموجودة فى الدنيا وهى ستة كما ذكرنا ، للروح منها ثلاثـــة وهـــى معنوية وللجسد منها ثلاثة وهى حسية ولا لذة فى الدنيا غير هذه الستة أبداً وإنما يوجد مـــا يساعد فى تحقيق هذه اللذات ، كالمال مثلاً فإنه مساعد على لذات الدنيا والملك مثله وليـــسا بلذة فى ذاتهما ، وقد وهم فى ذلك القدماء حيث عدو المال والملك من لذات الـــدنيا ولـــيس كذلك ، ويبقى بعد ذلك لذات الآخرة التى لا حصر لها وأعلاها التمتع بـــالنظر إلى وجهـــه الكريم سبحانه وتعالى نسأل الله العلى المنان بمنه وكرمه أن يمتعنا وأحبابنا جميعـــاً بـــالنظر إلى وجهه الكريم آمين .

Scanné avec CamScanner

الباب الرابع

فى جمال الموت

زينة الحياة وجمالها هو الموت ! إذ هو الوسيلة التى يضخ الله سبحانه وتعالى عبرهـــا الـــدماء الجديدة فى عروق الكون القديم ! ، فلولا الموت لضاق الكون بالعالمين إذ طبيعة الكائنات الحية النمو والتكاثر وهى لا تقبل البقاء فلابد من موت الكبار الذين تغير منظرهم وشاب شـــعرهم ووهن عظمهم وذهبت ملامحهم ليولد الصغار الذين تبهر بهجتهم وتسحر منظرهم وتـــروق شكلهم ليستمر جمال الكون وزينته ! ولولا موت الكائنات التي تقـــدمت بهاالعمروانتـــهت مهمتها لرأيت في الكون منظرافظيعا مملاملئابالعجزةوالضعفاءوالمرضى من الناس والحيوانـــات والطيوروغيرها ! قال تعالى :" ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل عن العالمين " .

[والموت هو انقضاء الحياة لكل كائن حي] ، وهو قرين الحياة فما من حي إلا وله أجل سيموت فيه حتماً قال تعالى :" وتوكل على الحي الذى لا يموت " فنفى سبحانه وتعالى عـــن نفسه الموت وأثبته وكتبه على سائر خلقه بقوله تعالى :" كل نفس ذائقة الموت " .

والموت هو المعبر والجسر بين الغيب والشهادة فبينما كل ما في الدنيا شـــهادة وكـــل مـــا فى الآخرة غيب يبقى الموت وسطاً بينهما فيه جزء من الشهادة حيث نرى المتوفى بأعيننـــا إلا إن فيه جزءاً من الغيب حيث لا ندرى أين ذهب روحه ولذلك سماه القرآن الكريم يقيناً .

فمن رحمة الله سبحانه وتعالى بالكائنات الحية أنها إذا انتهت أجلها وضعف أجسامها واختـــل نظامها وبلغ الألم والعذاب بأنفسها مبلغاً لا يطاق يرحمها بارئها سبحانه وتعالى بنعمة المـــوت فتستريح من عناء وبلاء شديد! .

Scanné avec CamScanner

ثم إن تلك الرحمة قسمان رحمة عامة ورحمة خاصة وكلاهما لطف من المولى بخلقه جميعاً فلـــولا الموت لضاقت الدنيا بأهلها إذ التوالد والنتاج من سائر المخلوقات مستمرة من لدن النـــشأة الأولى وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فمن الرحمة العامة لجميع خلقه سبحانه وتعـــالى رحمة الموت إذ به يتناوب الكائنات فى عمارة الأرض ، ومن الرحمة الخاصة بكل مخلوق حـــي موته ، ولولا ذلك لما استراح من عناء الدنيا إذ الأجساد التى نحملها مأخوذة من العالم السفلي وهو فان لا محالة ولا شيء من الدنيا يعبر إلى الدار الآخرة إلا الأرواح فلولا الموت لما عـــبر شيء من تلك الكائنات إلى الدار الآخرة ، ثم إن الموت مخلوق كالحياة قال تعالى : " الـــذى خلق الموت والحياة " وشرح ذلك يطول ، ويؤتى بالموت يوم القيامة كما فى صحيح مسلم فى صورة كبش أبيض ويذبح فيموت الموت وينادى يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النـــار خلود بلا موت .

وهو قسمان : الموت الأكبر وهو مرحلة ما قبل الوجود حيث كانـــت الأجـــساد نطفـــاً فى الأصلاب لا حياة لها وإن تحركت ، والموت الأصغر وهو المعقود له هذا الباب قال تعـــالى :" قالوا ربنا أمتنا اثنيتين وأحييتنا اثنتين ".

قال الناظم :

إنمـــا المـــوت راحـــة وانتقـــال مـــن فنـــاء لحيـــث يلفـــى البقـــاء
وهو قسمان مـــوت حـــس ومعـــنى لم يمـــت قـــط مـــن لـــه اعطـــاء

اختلف العلماء فى حقيقة الموت هل له ألم أم لا ؟ فذهب الكثيرون منهم إلى أن للمـــوت ألمـــاً واستدلوا بقوله عليه الصلاة والسلام " اللهم هون علينا سكرات الموت " وذهب آخـــرون منهم الإمام بن حزم رحمه الله تعالى إلى أن الموت لا ألم له وله رسالة فى ذلك سماها " ابطال ألم الموت " والذى نختاره من ذلك أن الخلاف لفظي فالذين قالوا إن للمـــوت ألمـــاً نظـــروا إلي الأحوال المصاحبة له والحاصلة عند وقوعه والذين نفوا عنه الألم نظروا إلى ما بعد حلول الموت لا إلى ما قبله ، إذ الألم الذى يحصل هو مرحلة ما قبل الموت وهو الذى يستراح منه بـــالموت

Scanné avec CamScanner

ولا تكون الاستراحة ألماً وتلك الاستراحة هى المسماة بالموت ، إذ لا يقال للحيوان أنه ميت إلا بعد استكانته وانقطاع حراكه بالموت ، فالآلام التى تحصل عند الموت من المرض والحزن والخوف والهلع كلها خارجة عن حقيقة الموت ، ولا ينافي ذلك كون الموت مصيبة فى ذاته إذ فيه فراق الأحباب وتغير الأحوال والإقبال على الأهوال إلا أن ذلك كله أشياء خارجة عن الموت كحقيقة .

ثم إن الموت انتقال من عالم الفناء إلى عالم البقاء الذى لا موت بعده أبداً قال تعالى :" وإن الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون " وهو أيضاً قسمان موت حسي وهو فقد الحركة وموت معنوي وهو فقد الإرادة فمن لا إرادة له ميت حكماً !

هذا وإذا كان الموت عاماً لجميع الخلائق إلا أنه أنواع فالعظماء والأكابر والمصلحون فى الأرض لا يموتون أبداً كموت بقية الناس ، إذ الموت بالنسبة للكائن الحي هو انقطاع كل أدواره فى الحياة فلا هو يفيد ولا هو يستفيد ، بينما الأكابر والعظماء يستفيدون ويفيدون بما قدموه فى الحياة قبل موتهم ، وربما كانت إفادتهم واستفادتهم بعد موتهم أكثر منه قبل الموت بحيث تتربى أمم وأجيال بأكملها على مبادئهم ويستنيرون بهديهم وتكتب كل ذلك فى ميزان حسناتهم قال تعالى :" إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم " .

ثم قال :

إنما الناس ما بنوه ويبقى بعد كل هجاؤه والثناء

وكما ذكرنا أن المصلحين الذين ملأوا حياتهم بالعطاء والنفع لا يموتون بل يستفيدون ويفيدون بعد موتهم فقد يكون العكس إذا لم يصلحوا ، بحيث يَضرون ويُضرون بعد موتهم وذلك إذا سلكوا طرق الفساد فى حياتهم وسنوا للناس سنناً سيئة والعياذ بالله تعالى قال عليه الصلاة والسلام " من سن سنة حسنة فلها أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " . واعلم أن الله تعالى يجازي كلاً من الفريقين بشيء من نتائج أعمالهم فى الدنيا قبل الأخرة ، فيثنى الناس ويبجلون ويحمدون

Scanné avec CamScanner

ويمجدون ذكر العظماء والمصلحين ويترحمون عليهم ، بينما يلعنون ويمقتون ويرجمون المفسدين قال تعالى فى المصلحين :" وجعلنا لهم لسان صدق علياً " وقال سبحانه فى المفسدين : " وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين " .

ثم قال :

وترى المرء ميتاً وهو حي ... وترى الميت خلفه أحياء
ولعمري ما في الحياة بقاء ... ولكم عاش بعدهم عظماء

والغريب فى الأمر أنك ترى إنساناً سوياً سليماً بكل أعضائه إلا أنه لا يستفيد به أحد من الناس وإنما يضر الناس فقط ، وترى آخر ميتاً تراباً رميماً مات من مئات السنين إلا أنه لا يضر أحداً بل يستفيد الناس بما قدمه قبل موته ويقتدون به ويتبعونه ! فوالله هو الحي حقيقة إذ لا معنى للحياة إلا الإفادة والاستفادة ، والمذكور قبله هو الميت حقيقة إذ لا معنى للموت إلا عدم الإنتاج والنفع .

هذا ولا بقاء لأحد فى الدنيا إذ الدنيا دار فناء وزوال إلا أن العظماء والأكابر والمصلحين لا يموتون أبداً بل يستمر العطاء بعدهم سنوات وسنوات قال عليه الصلاة والسلام :" خير ما يخلفه الرجل ثلاث صدقة جارية – وهو أقلها شأناً لانحصارها فى الصدقة – وولد صالح يدعو له – وهو أوسطها لشموله للدعاء والأعمال الصالحة التى تقوم بها ذريته بعده – وعلم ينتفع به من بعده " – وهو أعمها وأشملها لانتشاره فى شتى بقاع الأرض وتوارث الأجيال لها جيلاً بعد جيل وكل ذلك يكتب بفضل الله تعالى فى ميزان حسناته لمئات السنين أو ألاف السنين .

ثم قال :

ويرى الناس فى الحياة نعيماً ... إن أحسوا بأنهم طلقاء
ويرون الممات فيها عياناً ... بلظى الذل إن علاهم بلاء

Scanné avec CamScanner

وإذا كنا ذكرنا في هذين الفصلين الحياة والموت اللذان هما قرينان فاعلم أن لكل منهما طعماً ومذاقاً ، فطعم الحياة هى الحرية والشعور بالراحة ولذلك حرص الإسلام على حرية الناس فى كل شيء فى معتقداهم ومعاملاهم ورغباهم ، إلا أنها حرية حقوق بحيث لا يعتدى أحد على أحد ويراعي كل واحد منهم حرية الآخرين قال تعالى :" لا إكراه فى الدين " وقال تعالى :" فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " ولم تنسخ تلك الآيات بل هى محكمات واضحات.

وطعم الموت هو القهر والظلم والاحتلال والقهر والطغيان وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن كل ذلك بقوله تعالى :" لست عليهم بمصيطر " وبقوله تعالى :" أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " وبقوله تعالى :" فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر " .

هذا وقد يكون طعم الذل أمرّ من الموت ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عباده أن يؤذى بعضهم بعضهاً وأن يستعبد بعضهم بعضاً ظلماً وعدواناً ، وتاريخ الإسلام المجيد مليء بالنماذج الطيبة والشواهد الحية الدالة على حرية الناس جميعاً قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه :" متى استعبدتم الناس وقد ولدهم امهاهم أحراراً " .

ثم قال :

ويلي الموت والحياة حساب	لذوي العقل حيث يلفى الجزاء
ولمن كان طائعاً وتقياً	جنة الخلد فى الجنان السماء
ولمن كان عاصياً وشقياً	باطن الأرض فى الجحيم الشقاء

ذكر الناظم فى هذه الابيات الثلاثة وجهة النظر الإسلامية الكريمة لما بعد الحياة والموت وهى الحساب يوم القيامة قال تعالى : " إن الساعة آتية لا ريب فيها " ، إذ لا يعقل أن الكائنات بعد هذا التاريخ الطويل من وجودهم ومرورهم بشتى المراحل والتجارب أن يكون كل ذلك وقعت صدفة وعبثاً ! .

Scanné avec CamScanner

واعلم أن العقول السليمة تحكم بضرورة البعث والحساب إذ يستحيل أن تكون هذه الكائنات المختلفة بكل ما حوتها من بدائع وعجائب وغرائب تموت فقط وتنتهى بذلك ولو كان الأمر كذلك لما وجدت أصلاً قال تعالى :" أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم " فلابد للخلق جميعاً بعد حياتهم وموتهم أن يبعثوا قال تعالى :" إن كل من فى السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً " ونصيب سائر الخلائق من ذلك هو البعث والحشر فقط وأما الحساب فمن نصيب الثقلين وهما الإنس والجن ، وخرجت الملائكة عن ذلك لأنها لا تعصى الله ولا تخالف أوامره سبحانه فلا تحاسب على شيء .

ويلي الحساب في يوم القيامة الجزاء إما بالجنة وإما بالنار وهى المرحلة الخامسة من مراحل الوجود بالنسبة لأبناء آدم ، فقد مر الآدميون بخمس عوالم جعلها ابن حزم رحمه الله سبعة وخالفناه فى ذلك وهى : عالم الأرواح : " وسماها عالم الإبتداء " وذلك قبل أن تعلق الأرواح بأجسادها ، ثم عالم الحياة :" وسماها عالم الابتلاء " وتبدأ بنفخ الروح فى الجنين وتنتهى بالموت ، ثم عالم البرزخ ويبدأ بالموت وينتهى بالبعث ، ثم عالم القيامة ويبدأ بالبعث وينتهى بدخول كل من الفريقين إلى داره ومستقره إلى الأبد وهذا العالم الذى هو عالم القيامة هو الذي مقداره خمسون ألف سنة ، والناس متفاوتون فى ذلك ، ثم عالم الجزاء وهو آخرها إذ لا زمان بعده وإنما هنالك الأبد والأمد إلى مالا نهاية إما إلى الجنة نسأل الله سبحانه وتعالى بمنه وكرمه أن نكون من أهلها وإما إلى النار نعوذ بالله ونور وجهه الذى أشرقت به الظلمات أن نكون من أهلها ، وهى المرحلة التى لا نهاية لها قال تعالى فى أهل الجنة :" جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً " هذا والجنة والنار مخلوقان الآن وموجودان فعلاً إلا أن الناس مختلفون فى مكانهما ، ونختار من ذلك أن الجنة فى السماء قال تعالى:" وفى السماء رزقكم وما توعدون " وقال تعالى :" إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة " كما نرى أن الجحيم فى الأرض السابعة فى جوف الكرة الأرضية قال تعالى :" مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً " والبراكين تسكن تحت المحيطات وصفتها صفة الجحيم تماماً إذ تحرق الصخور وغيرها

Scanné avec CamScanner

قال تعالى :" ناراً وقودها الناس والحجارة " وقال تعالى :" كلا إن كتاب الفجار لفي سجين " وأثر عن بعض السلف رحمهم الله منهم الإمام الطبرى أن سجين هى الأرض السابعة .

ولا نجادل فى ذلك ولا ننكر على من قال بخلافه إذ هو مما لم نكلف بالبحث عنه وإنما كلفنا بالعمل بما يدخلنا الجنة ويبعدنا عن النار . وليس البحث عن مكان وجودهما بمفيد فى دخولهما أو عدمه ،وهذا الباب الكلام فى آخره تابع للإيمان الذى نتناوله بإذن الله تعالى فى كتاب الإيمان والعمل الصالح إن شاء الله تعالى ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . آمين

Scanné avec CamScanner

الباب الخامس

فى جمال الإنسان

زينة الكائنات الحية والميتة جميعاً وجمالها هو الإنسان ! إذ هو سيدها قال تعالى : " يـــا أيهـــا الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك في أى صورة ما شاء ركبـــك " [والإنسان الكامل هو الكائن الحي الذى امتاز على سائر المخلوقات بالنطق] .

والنطق عبارة عن ثلاثة أشياء :

١ – التكلم بالأحرف المختلفة والتفاهم بها ، فبينما لقن الله سبحانه سائر المخلوقات حرفاً أو حرفين أو ثلاثة على الأكثر تصوت بها كخوار البقر فإنه الباء فقط ، أو الغنم فإنه الميم فقط، أو نباح الكلب فإنه الواو فقط ، أونهيق الحمار فإنه الهاء فقط ، وقد تبلغ بعض الطيور مـــن ذلك حرفين أو ثلاثة كالديك الذي يصوت بحرفين وهما الكاف والـــراء ويكررهمـــا هكـــذا [كُكُرُوكُوكْ] وتصويته بالراء ألكن كنطق الألثغ لا يكاد يبين ، وهناك طائر صغير اسمـــه فى الفلانية [تُبُوسُكُو] يصوت بثلاثة أحرف هى الواو والشين والكاف المكـــسورة هكـــذا [وِشُكِ] ويكررها سريعاً ، والغريب أنك لا تجد كائناً من تلك الكائنات صغيراًكان أو كبيراً يتخلى أبداً عن الحرف الذى لقنه الله إياه ، فلا الحمار ينبح ولا الكلب ينهق مع أنهما كلب وحمار ! فهما أفضل بكثير من الإنسان الذى يتخلى عن لغته وينكرها ويستهزئ بها وخاصـــة إذا كانت تلك اللغة لغة القرآن الكريم التى هى أوضح اللغات وأعربها !.

ولا نعنى بذلك أن الإنسان لا يتكلم بغير لغته أبداً بل التحدث باللغات المختلفة يزيد الإنسان جمالاً وكمالاً وإنما نهينا فقط عن تخليه عن لغة آبائه .

فبينما جعل الله جميع المخلوقات غير الآدميين كذلك لا تصوت إلا بحرف أو حرفين أو ثلاثة على الأكثر أعطى آدم وبنيه بفضله سبحانه النطق بما يزيد على أضـــعاف ذلـــك أضـــعافاً

Scanné avec CamScanner

مضاعفة ، وحاول ابن حزم رحمه الله تعالى حصر الأحرف التى ينطق بها الآدميون فبلغ بهـــا أربعين وزعم أن أي حرف سوى تلك الأربعين يكون حرفاً مولداً ناتجاً عن اشباع حرف آخر ونرى أن الأحرف أكثر من ذلك بكثير واللغات تتفاوت فى ذلك فقلّ أن تجد لغة من اللغات القديمة إلا وفيها حرف أو حرفين أو ثلاثة لا توجد فيما سواها من اللغات ، وإنما اعطى أبناء آدم ذلك لأنهم الذين يديرون الكون ويسوسونه بأمر الله تعالى .

٢ – القراءة والكتابة وتدوين العلوم المختلفة فلا تجد كائناً يقرأ ويكتب إلا أبناء آدم فقط .

٣ – مزاولة الصناعات والحرف المختلفة كالطب والبيع والشراء واستخدام الآخـــرين مـــن الخلق فى حاجاتهم المختلفة ، فلا تجد حيواناً يداوى جراح ابنه مثلاً أو يبيع أو يشترى من غيره أو يركب على ظهره.

واعلم أن الإنسان بقدر تمكنه من تلك الثلاثة يكون أكمل فأكمل فى الإنسانية ويؤدى دوره فى الحياة كإنسان ، كما أنه بقدر تخلفه عن تلك الثلاثة أو إحداها يلحق بالحيوان أكثر فأكثر .

فهذه الأشياء الثلاثة هى التى سماها الأوائل بالنطق فعرفوا الإنسان بأنه الحيوان النـــاطق ، أى المزاول لتلك المهمات الثلاثة التى هي [التكلم والقراءة والصناعة].

وعرفه بعض الكتاب المعاصرين بالحيوان الكاتب وهو واهم فى ذلك ومخطئ خطئاً كـــبيراً إذ النطق أعم من الكتابة .

واعلم أن النطق المذكور هو الذى اشتق منه " علم المنطق ": [أى العلم الذى يبحث فيه عن خصائص الآدميين] ووهم فى ذلك التعريف من عرف المنطق بأنه التفكير أو الآلة العاصـــمة للذهن عن الخطأ ،لان ذلك حصر للمنطق في جزء صغيرمن كيانه الواسع ، فسائر الكائنـــات تفكر فى أولادها وتحن إليها وتفكر فى أعشاشها قبل أن تنسجه .

Scanné avec CamScanner

وقد مر المنطق فى تاريخ الآدميين بخمس مراحل مختلفة استمرت كل مرحلة منـــها دهوراً طويلة ثم خطى الناس إلى ما بعدها :

وهى المرحلة الأولى : " منطق إنكار الحقائق " فقد بدأ الأوائل البحث فى المنطق والفلـــسفة بإنكار ذواتهم ووجودهم وهى المرحلة التى سميت بالسفسطائية ، وإنما أنكروا أنفسهم بعـــد فقدهم لنور النبوة والعلم الذى نزل به أبوهم آدم عليه السلام من السماء .

المرحلة الثانية : " منطق إثبات الحقائق " وفيها اعترف الآدميون بوجودهم وذواتهم وأقـــروا بحقائق الأشياء وبدأو يبحثون عن أسمائها ومسمياتها ووضعوا لكل شيء حداً ورسمـــاً وهـــى المرحلة التى سميت بمنطق أرسطو ، وفي آخر تلك المرحلة الأرسطية وقـــع المنطـــق فى أيـــدى المسلمين فنقحوه وهذبوه وحذفوا منه وزادوه ثم خطوا بالبشرية جميعاً خطوة مهمة إلى الأمام عندما بدأوا فى التجارب .

المرحلة الثالثة : " منطق تجربة الحقائق " : وفيها نقل المسلمون الأوائل بأفكارهم المتنـــورة بنور الوحي من مجرد التصورات والتصديقات التى تدور بالذهن فى حلقة مفرغة إلى مرحلـــة التجربة والبحث عن خصائص الأشياء ومكوناتها بعد تعريفها حداً ورسماً .

إلا أن المسلمين الذين بدؤا بنقل المنطق من مجرد التصور والتصديق إلى التجربة ســـرعان مـــا صادرها منهم الأمم التى غزت ديارهم واحتلت ممالكهم وكانت التجربة فى مراحلها الأولى .

المرحلة الرابعة : " منطق الاستفادة بالحقائق " وفيها انتقل علم المنطق من مجرد التجربـــة إلى التطبيق الواقع والاستفادة منها ، وهو العصر الذى نعيشه اليوم حيـــث تفاجئنـــا التقنيـــات الحديثة كل يوم بما لم نكن نتخيله أبداً من الممكنات بل نراه من المستحيلات .

المرحلة الخامسة : "منطق قلب الحقائق " : أو منطق ما فوق المادة أو المنطق الروحى ولم يكتشف بعد وإنما الناس فى بداياته فقد بدأ العلماء يفكرون فى تحليل المادة إلى طاقة ثم جمعه ثانية ! بمعنى أن يوقف

Scanné avec CamScanner

الإنسان فى أمريكا مثلاً ثم يحول تحت سرعة معينة إلى طاقة ليصل إلى المريخ فى ثـــوان معـــدودة ثم يستوي مرة أخرى بعد تحليله بشراً سوياً هنالك إثر وصوله !

ولا يصل أبناء آدم إلى تلك المرحلة بمجرد علمهم أبداً إذ هو المنطق الروحي اللطيف البعيـــد عن ظلمة الماديات التى هم غارقون في بطونها ، وانما ذالك مجرد غرور وأوهام قال تعـــالى :" يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً " .

واعلم أن هذا المنطق العظيم فى مرحلته الخامسة التى هى المنطق الروحي وما فوق المادة هـــو "منطق قلب الحقائق " والحقائق لا تنقلب إلا بإذن خالقها إما بمعجزة أو كرامة وذلك خـــاص بالصالحين من عباده فقط وهو مذكور فى القرآن الكريم قال تعالى فى نبيه سليمان وقد أحاط به جمعه الكريم :" قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين قال عفريت مـــن الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوي أمين " وتلك منطق المادة والقـــوة التى يتقنها الجني ثم قال تعالى : " قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك " وهذا هو المنطق الروحي العظيم الذى قلب الحقائق وأتى بموجبه ذلك الرجـــل الصالح والعالم العابد بعرش بلقيس من اليمن إلى الشام فى طرفة عين ، ويستحيل ذلك إلا بإذن الله تعالى وتأييده وعونه الخاص ، ولذلك قال تعالى حاكياً عن سليمان ما يؤكد ذلك المعـــنى :" فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غني كريم " والشاهد هو قوله " هذا من فضل ربي " أى هذا الذى هو قلب الحقائق لا يكون إلا بفضل الله تعالى وإنما يكون الشكر بالإيمان والعمل الصالح اللذان هما دين الأنبياء جميعاً وهو الإسلام .

واعلم أن المنطق بكافة مراحله نتاج إنساني وابتكار آدمي عظيم والمرحلة الرابعة التى نعيشها اليوم هى عصارة أفكار أبناء آدم جميعا عبر التاريخ ولا ينسب الفضل فيه إلى ناس معينين وإنما هو تراث الإنسانية جميعاً إذهم جميعاً أبناء آدم " وعلم آدم الأسماء كلها " .

هذا ولا ينبغى أن يسخر من شيء من تلك المراحل المختلفة من المنطق إذ لو لم يسلك النـــاس فيه أولاً لما وصلوا لما بعده ثانياً ، وإنما الواجب أن يستشرف كل جيل للمرحلة التى تلي مـــا

Scanné avec CamScanner

تعيش فيه بعد إتقانه لما عاصرته من تلك المراحل إذ بذلك الاستشراف يبقى عـــالم الابتكـــار والاستكشاف واسعاً أمام الناس ، ولا ينبغى أن نخطو خطوة إلى الوراء فى إحاطتنا بمنطق مـــن قبلنا مع جهلنا العميق بمنطق عصرنا العظيم الذى نعيشه اليوم فضلاعمابعدنا .

واستخف بعض العلماء من المسلمين بالمنطق منهم الإمام بن تيمية والنووي وابـــن الـــصلاح والباجي وغيرهم كثير لأنهم رأوه محصوراً فى مجردالتصورات والتصديقات التى لا تنتج، بينما رآه طائفة أخرى منهم مهماً جداً لا يستغنى عنه أبداً منهم الإمام بن حزم والغزالي وابن رشد وغيرهم كثير رحمهم الله جميعاً وهذه الطائفة الثانية هى التى أصابت فيما ذهبت إليه إذ المنطق القديم هو الذى أدى إلى المنطق المادي الذى انبنى عليه كل الحضارة الغربية التى تفاجئنا كـــل يوم بما لم نكن نتخيله أبداً من الممكنات بل نراه من المستحيلات .

فالواجب علينا اليوم كمسلمين هو أن نتقن منطق العصر الذى نعيش فيه وهو منطق المـــادة بكل محتوياته لكي نلحق بسائر الأمم ثم نستشرف للمنطق الروحي الذى هو منطقنا الأصـــيل إذ لا يصل إليه غيرنا وهو منطق " يا سارية الجبل " وهو منطق " فيفتتحوهـــا بـــالتكبير" ولا نصل إلى ذلك إلا بالإيمان والعمل الصالح . والله الموفق

قال الناظم :

وأرى النـــاس إخـــوة ولـــدهم	وغـــذهم لبانهـــا حـــواء
إنمـــا النـــاس قبـــضة مـــن تـــراب	جمعـــت فيـــه ظلمـــة وضـــياء
إن يكـــن منـــهم افتخـــار بـــشيء	فـــبروح وغـــير ذاك هبـــاء

[الأخوّة هى الترابط الرحمي الذى يجمع بين بنى آدم جميعاً] إذ أبوهم جميعاً آدم وأمهم حواء وقد تجد إنساناً لم يلده ذكر كالمسيح عليه السلام إلا أن الأم التى تلد وترضع لابد منها لكل آدمي إلا أبوينا آدم وحواء عليهما السلام الذين هما أصل الجنس البشري قال تعالى :" يا أيها الناس إتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً "

Scanné avec CamScanner

والأخوة فى الإسلام ثلاثة :

١ – الإخوة الإنسانية وهى للناس جميعاً فلكل إنسان كرامته الإنسانية مهما كانت ديانتـــه أو معتقده أو لونه أو جنسه لا يعتدى عليه أحد بغير حق قال تعالى :" يا أيها الناس إنـــا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا " فلم يقل سبحانه وتعـــالى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتتقاتلوا أو لتتناحروا وإنما لتعارفوا، وقال تعـــالى :" ولقـــد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كـــثير ممن خلقنا تفضيلا " أى كرمناهم جميعاً وفضلناهم جميعاً وقال تعالى :" من قتل نفـــساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا النـــاس جميعاً " .

وهذه المرتبة من الأخوة هى التى يخاطبها الحق سبحانه بآيات الناس كقوله تعالى يا أيها الناس اعبدوا يا أيها الناس إنا خلقناكم يا أيها الناس إن كنتم فى ريب الخ .

٢ – الإخوة الإيمانية أو الدينية وهى أشرف وأمتن من الأولى قال تعالى : " إنما المؤمنون إخوة " وقال تعالى :" فإن تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الذكاة فإخوانكم فى الدين " وهـــذه المرتبة هى التى يخاطبها الحق سبحانه بآيات الإيمان كقوله تعالى :" يا أيها الذين آمنـــوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول " " يا أيها اللذين آمنوا لا تأكلوا الربا ". " يا أيها الذين آمنوا اتقوا ".

٣ – الإخوة الرحمية وهى أمتن الثلاثة وأوكدها إلا أن شرطها الإيمان قال تعـــالى :" وأولـــوا الأرحام بعضهم أولى ببعض " وقال تعالى :" وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل " فبدأ بالأقارب والأرحام وقال عليه السلام :" الصدقة للفقير صدقة وللأقارب صدقة وصلة " .

Scanné avec CamScanner

ثم قال :

أفـــضل النـــاس عـــالم كـــل همـــه أن يـــرى غـــيره وهـــم علمـــاء

[الفضل هو الشرف والقيمة والميزان لكل شيء]وإذا كـــان النـــاس لا يتفـــاوتون في الإسلام بذواتهم وأبدانهم وإنما يتفاوتون بقيمهم وأعمالهم فأفضل الناس هو أمكنهم فى معـــنى الإنسانية ، وليس للإنسانية أي معنى إلا العلم الذى امتاز به أبوهم آدم فى الملأ الأعلى وبـــه استحق الخلافة فى الملأ السفلي كما تقدم ، " وأفضل الناس أنفعهم للناس " كما قال عليـــه الصلاة والسلام ولا ينفع المرء الناس بمثل العلم أبداً قال تعالى :" يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ". وقال عليه السلام :" خيركم من تعلم القرآن وعلمـــه " ولا يحصل العلم إلا بالتعلم وقال عليه السلام :" العلماء ورثة الأنبياء والأنبياء لم يورثوا دينـــاراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر " والأنبياء أفضل الناس جميعاً ووظيفتهم العلم والتعليم .

ثم قال :

أعقل النـــاس مـــدرك قـــدر نفـــسه لـــــيس يطغيـــــه منـــــهم الإطـــــراء

[العقل هو الانضباط فى الأمور] وأعقل الناس جميعاً هو من يعرف قدر نفسه لأنه ينجوا من الأخطاء غالباً ، وإطراء الناس وثناؤهم عليه لا يغره مما يعرفه عن نفسه ، وقد تبوأ عـــرش ذلك نبي الله لقمان عليه السلام ، ووصاياه لابنه خير شاهد على ذلك ولنا إن شاء الله تعالى كتاب فى ذلك سميناه " فتح الرحمن فى وصايا لقمان " وهو نبي وكان أسود اللـــون باتفـــاق المفسرين إلا أن بعضهم نفى كونه نبياً لأنهم يرون أن سواده ينافي النبوة وهو جهـــل فـــاحش منهم بقيم الناس فالإنسان بروحه لا بلونه قال عليه السلام :" الناس رجلان بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله كلكم لآدم وآدم من تراب " . وقال عليه السلام فى رجل أثنى على صاحبه فاغتر بذلك " ويحك قطعت عنق صاحبك "

Scanné avec CamScanner

ثم قال :

أســـعد النـــاس فى الحيـــاة فقـــير كـــان منـــه بمـــا لديـــه اكتفـــاء

[السعادة هى البعد عن الهموم كلها] ولا يحصل ذلك إلا بشيئين وهما الأمـــن وعـــدم الحزن ولذلك جعلهما الله تعالى صفة أوليائه فى الدنيا والآخرة قال تعالى :" ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون " وقال تعالى :" ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون " أي لا يخافون شيئاً لا مرضاً ولا جوعاً ولا عطشاً ولا موتاً ولا كائناً ما كان ثم هم لا يحزنون على شيء يفوتهم فى الدنيا ولا يحرمون من شيء فى الآخرة إذ لهم فى الجنة ما تشتهى أنفسهم ولهم فيها ما يدعون " . ولا يسعد الإنسان أبداً ولو جمعت له الدنيا بما فيها ما دام خائفـــاً أو حزيناً ، بينما تجده فى غاية السعادة ولو كان معدماً مالم يخف ولم يحزن ، فأسعد الناس فى الحياة الدنيا هو الفقير الذى لا يشغله شيء عن نفسه وهو مكتف بما لديه وغني بنفسه قـــال عليـــه السلام :" ارض بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس "

ثم قال :

أســـلم النـــاس فى الحيـــاة أريـــب لـــيس يـــؤذى ومـــا لـــه أعـــداء

[السلامة هى النجاة من الأذى] ولا يسلم من شر الناس أحد قالوا إن حكيمـــاً خـــرج ومعه حفيده وحماره فخرجا راكبين فلقيمها بعض الناس فقالوا لهما ما أقسى قلبكما أتريـــدان أن تقتلا الحمار ثقلاً فانزل الحفيد وبقى راكباً فلقيه آخرون فقالوا له لا رحمة فى قلبك كيـــف تركب ويمشي حفيدك الصغير فنزل هو وأركب الحفيد فلقي آخرين فقالوا له مـــا أتعـــسك أيركب الصغير وتمشي وأنت عجوز فنزلا معاً ولقيا آخرين فقالوا لهما ما أغباكمـــا أيمـــشي الحمار وحيداً وتمشيان معه كالحمير فقال لحفيده لنعد إلى ما كنا فيه إذ لا يسلم من شر الناس أحد فركبا جميعاً واستراحا من شر عظيم إذ تركا الناس وشأنهم ومضيا لشأنهما . وفي الحكمة خالط الناس وتحمل أذاهم ، وفى المثل عندنا " الناس كثياب من شوك إن لبستها وخزتك وإن

Scanné avec CamScanner

خلعتها بقيت عرياناً " ومع كل ذلك فأسلم الناس فى الحياة هو من لا يؤذى أحداً ولا أعداء له ويصعب وجوده إلا أنه موجود .

ثم قال :

أسوأ النـــاس فى الحيـــاة جهـــول　　　مـــستبد برأيـــه خطـــاء

[السوء هو الوقوع فى الأذى] وهو ضد السلامة وإذا كان أفضل الناس هو العالم فـإن أسواهم هو الجاهل وخاصة إذا أصر على جهله وكابر الحق واستبد برأيه وأسوأ من كل ذلك إذا حاول فرض رأيه الخاطئ على غيره ! وإذا كان الله تعالى قد أمر بالعلم فإنه سبحانه نهـى عن الجهل قال تعالى :" فلا تكونن من الجاهلين " وأمر بالإعراض عن الجاهلين فقال تعالى :" خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " وكما أن العلم درجات وتقدّم فإن الجهـل أيضاً دركات وتخلف ، فأعلى أنواع الجهل وأسوؤها جهل المرء بخالقه والعياذ بالله وأدناها جهله بنفسه التى بين جنبيه وبقدره وحدوده ، وأوسطها الجهل بالحياة الدنيا ومتطلباتهـا وكيفيـة عبورها بسلام ، ومن كان جاهلاً بهذه الثلاثة معاً فالدواب أحسن حالاً منه إذ هى غير جاهلة بحياتها! .

ثم قال :

أتعـب النـــاس فى الحيـــاة كـــسول　　　لـــيس يـــسعى وكلـــه أهـــواء

[التعب هو عدم الراحة]وأكثر الناس تعباً فى الحياة هو الكسول إذ هو الذى لا يسعى فلا يجد ما يريد أبداً ، وأما الذى يسعى فتعبه مؤقت إذ سيدرك ما يريد ومتى أدركه اسـتراح إلى الأبد ! وقد عدّ الله تعالى الكسل من صفات المنافقين قال سبحانه :" وإذا قاموا إلى الـصلاة قاموا كسالى " .

Scanné avec CamScanner

[والكسل هو ميل النفس إلى ما يؤذيها مع الإفراط فيه] كالنوم والأكل والجماع فإن هذه الثلاثة وإن كانت مفيدة إلا أن الإفراط فيها يؤذي بصاحبها ، وإذا أفرط الكسل صـــار عجزاً وهو فقد الإرادة والعياذ بالله تعالى

وكان المصطفى عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله منهما معاً بقوله :" اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل " ، وأسوأ ما يكون الكسل إذا كان صاحبه ذا رغبات وأهـــواء إلا أنـــه لا يحرك ساكناً لتحقيقها قال عليه السلام :" الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني "

ثم قال :

أخطـــر النـــاس فاقـــد للأمـــاني عنـــده المـــوت والحيـــاة ســـواء

[الخطر هو ما لا يؤمن شره] وأخطر الناس هو من فقد الرغبة فى الخير ولا يحصل ذلك للإنسان غالباً إلا عند وقوعه تحت ضغط شديد كأن يخسر ماله كله أو يحتل أرضـــه أو تهـــان كرامته ، [والأمنية هى ما يرجو ويأمل الإنسان حصوله مما يحب] وهى الرجاء والأمل اللذان هما سران عظيمان من أسرار الحياة إذ لولاهما لما سعى أحد لنيل ما يرجوه ويتمنـــاه ، وقد أثنى الإسلام على الأمل الذى يصحبه عمل قال تعالى :" ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين " فبرزوا أولاً بعد ما طمعوا فى النصر فنصرهم الله وقال تعالى :" اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا " فذهبوا وبحثوا أولاً بعد ما طمعوا في وجوده فعثروا عليه بإذن الله ، وإنما يذم مجرد الأماني بلا ســـعي قال تعالى :" ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلهم الأمل فسوف يعلمون " .

ثم قال

أعجـــز النـــاس حاســـد يتلظـــى أن يـــرى النـــاس عنـــدهم نعمـــاء

Scanné avec CamScanner

[العجز هو فقد الإرادة وهو الموت حكماً] [والحسد هو تمنى المكروه للغير] وقد استعاذ النبى عليه السلام من العجز ونهى عن الحسد قال تعالى :" أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله " كما أمر تعالى بالإستعاذة من شر الحساد فقال سبحانه " ومن شر حاسد إذا حسد " وقال عليه السلام :" إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب "

واعلم أن الحسد ضعف فى النفس والدين معاً إذ لولا ضعف نفس الحاسد لسعى مثل سعي من يحسده أو لعلم أن ذلك تقدير العزيز الحكيم ، وقد عاقب الله الحاسد على حسده بثلاث بعضها أسوأ من بعض الأول : أنه يحترق برؤية المحسود فى نعمائه والثاني : أنه يفوته تحقيق مثل ذلك ما دام حاسداً والثالث : أن ذلك الحسد لا يغير من الأمر شيء بإذن الله تعالى نسأل الله تعالى أن يقينا وإياكم جميعاً شر الحسد والحاسدين بمنه وكرمه آمين .

ثم قال :

وغريب فى العمر من يتمنى أنه فى حياته لا يساء

أغرب الناس فى الحياة هو من يريد أن لا يرى فى الدنيا ما يسؤه أبداً ، لاستحالة ذلك إذ الدنيا دار محن وابتلاء قال تعالى :" أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا أمنوا وهم لا يفتنون " وقد منع ذلك الفهم الخاطئ لسنة الحياة وحقيقتها طائفة من الناس من الإيمان بالله حيث يرون أنه لابد أن يتزل الله تعالى عند كل رغباتهم قال تعالى :" وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء " وإنما يحصل ذلك الذي توهموه فى الآخرة فى الجنة لا فى الدنيا قال تعالى :" لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعداً مسئولا " وقال تعالى :" ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم " نسأل الله سبحانه وتعالى بمنه وكرمه أن يجعلنا وأحبابنا جميعاً من أهل جنته ودار كرامته إنه هو الغفور الرحيم .

Scanné avec CamScanner

الباب السادس

فى جمال النفس

زينة الإنسان وجماله نفسه التى تخالف سائر النفوس ! قال تعالى :" فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين " وقال تعالى : " ونفس وما سواها " .

وقد تكون النفس والروح والقلب والعقل جميعاً شيئاً واحداً وإنما تختلف تسمياتها حسب متعلقاتها ، فباعتبارها مجردة عن الجسد قبل حلولها فيه اسمها الروح ، وبعد حلولها فيه وشروع الجسد فى التنفس – لا قبل ذلك – اسمها النفس ، وبعد شروعها فى التنفس وأخذها فى التقلب بين ما تميل إليه من رغباتها اسمها القلب ، فإذا ما جاوزت التقلب واختارت احدى الأمرين ووفقت فى اختيارها أو أكرهت صاحبها على شيء معين اسمها العقل لأنها كالعقال الذى منعته من التقلب ، وعلى هذا الكثير من المتقدمين منهم الإمام بن حزم رحمه الله تعالى فى النفس والروح إلا أنه لم ير فرقاً بينهما بأي اعتبار ، وأما القلب والعقل فلم أجد له كلاماً فى كونهما واحداً أو لا .

وقد يكون الأمر أن النفس هى الروح ولكنها تسمى روحاً باعتبار صفائها وتخلصها من كدورات النفس ولا علاقة لهما بالقلب والعقل ، كما أن القلب هى العقل ولكن اختيارها الاختيار الصحيح بين متقلبات القلب هو العقل ، والذى نجزم به من ذلك هو قوله سبحانه وتعالى :" ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً " فحقيقة الروح لا يعلمها إلا بارئها ، ومن المقطوع به أن الروح لا يحملها من الكائنات السفلية إلا الآدميون فقط وإلا لما امتن الله عليهم بنفخ الروح فيهم قال تعالى :" فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين " ولا بأس بتسمية النفس روحاً مجازاً نظراً للخصال الحميدة التى يحملها الآدميون دون غيرهم من الخلائق فسائر الحيوانات تحمل أنفساً إلا أنها لا روح لها وأما القلب والعقل فهما شيء واحد لقوله تعالى :" أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم

Scanné avec CamScanner

قلوب يعقلون بها " والمقصود أنهم إن وفقوا للاختيار الصحيح الذى هو الإيمان فقد عقلوا وإلا فلهم القلوب المجردة من العقول التى نفاها الله تعالى عنهم .

ثم إن النفس البشرية أصلها نفس واحدة ومنها تفرعت سائر النفوس كلها قال تعالى : " هو الذى خلقكم من نفس واحدة "

ثم قال :

وأرى النفس – والنفوس كثيرة – كحروف يضمهن الهجاء

[النفس شيء يخلقه الله تعالى فى الكائن الحي فيتحرك بإرادته] والحياة أعم من النفس إذ الجماد كالشجر تحيا وتوصف بالحياة أو النمو إلا أنها لا نفس لها لأنها لا تتحرك بإرادتها ، ولا يوصف بالموت إلا ما كان له نفس قال تعالى :" كل نفس ذائقة الموت " وما سوى ذوات النفس يهلك أو ييبس أو يجف ولا يسمى ذلك موتاً ، وأصل النفوس جميعاً نفس واحدة هى نفس أبينا آدم إلا أن نفوس بنى آدم مختلفة جداً بخلاف سائر المخلوقات جميعاً ، فنفس الأسد لا تعرف إلا الافتراس ما دام على طبيعة خلقته لم يتدخل فى ذلك أحد ، ونفس النمل لا تعرف إلا السعي وراء قوتها ، ونفس الحية والعقرب لا تعرف إلا اللسع واللدغ ، إلا أن أبناء آدم لكل نفس منهم طبيعتها بين سهل وحزن وشجاع وجبان وبخيل وكريم وبر وفاجر فديوان الطبيعة أعطى لكل ذات نفس طبعاً واحداً لا يتخلف أبداً إلا عبر تغيير قهري كترويض الأسد مثلاً ، وأما أبناء آدم فلكل طبعه الخاص ، وقد يكون السر فى ذلك التربية والجو الذى ينشأ فيه ابن آدم وإلا فأنفس أبناء آدم حال الصغر تكاد تستوي فى براءة الطفل إلا أنها بعد كبرها ذات سعي شتى وحاملوها أصحاب وجهات نظر متباينة وحياة كل واحد منهم يصلح لأن يكون دفتراً عظيماً وسجلاً خاصاً مليئاً بالتجارب والوقائع والعجائب ، بل إن كل من حكى لك حياته منهم تجده أغرب من الآخر ، ومما يؤيد ذلك الذى ذهبنا إليه من أن التربية لها دور فى تغيير النفوس أنك تجد نفوساً معينة من قوم معينين مستوية فى طباعها فقد يتصف قوم معينون بالكرم وآخرون بالشجاعة وآخرون بالجبن فللتربية فى ذلك دورها ، قال

Scanné avec CamScanner

تعالى :" ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من ذكاها وقد خاب من دساها "

.

ثم قال :

فطـــر الحـــق خلقـــه فى كتـــاب　　خـــط فيـــه بحكمـــة مـــا يـــشاء

كل حـــرف لـــه صـــفات وشـــكل　　فاســـتواء لبعـــضها واســـتواء

نفوس أبناء آدم فى كثرتها واختلافها كأحرف الهجاء ولكل حرف صفاته عند النطق به ولـــه شكله عند رسمه ، ولا يتحد حرفان أبداً فى كل شيء إلا إذا كانا متماثلين ، ونفوس النـــاس كذلك فلكل نفس صفاته التى لا تشاركها فيها أي نفس عند اختبارها ولها صورتها الـــتى لا نظير لها عند رؤيتها ولا يتحد شخصان فى كل شيء أبداً وإلا لكان الأول عين الثاني ،.قـــال تعالى :" ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولـــذلك خلقهم " واعلم أن الاختلاف فى الصور والأشكال والطبائع هو من جمال أبناء آدم فبقيـــة الكائنات لا تكاد تفرق بين صورها وأشكالها إلا بعد تأمل شديد ، وأما فى طباعها فهى ذات طبع واحد كما تقدم . فكما أن الأحرف من حيث أشكالها بعضها مستقيمة وبعضها معوجـــة وبعضها مغلقه وبعضها منفتحة فالناس فى صورهم وأشكالهم كذلك ، وكما أن الأحرف مـــن حيث صفاتها بعضها مفخمة وبعضها مرققة وبعضها لينة وبعضها شديدة فالناس فى طبـــاعهم كذلك ، واعلم أن ذلك نعمة ونقمة فى آن واحد ، أما كونه نعمة فلانه لو اتحدت الكائنات كلها أو الناس جميعهم في شكل واحد لم يكن العالم جميلاً ولذهب رونق الخلائـــق وزينتـــها ، وتصور لو أن كل شيء فى العالم أزرق اللون أو أحمر أو أبيض أو أسود أو أصفر لرأيت منظراً فظيعاً لا طعم للجمال فيه ، ولو اتحد الناس جميعاً فى طباعهم وأخلاقهم لما عرفنا جمال الإسلام بجنب قباحة الكفر ولما رأيت سعة الجود بجانب ضيق البخل ولما أدركنا عزة الحرية بجانب ذل العبودية ، فمن حكمة الله سبحانه وتعالى أن خالف بين أشكال المخلوقات وغاير بين طباعهـــا قال تعالى :" ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير " وأما كون ذلك الاختلاف فى الطباع لا فى الصور نقمة فلأن الناس لو اتحدوا فى طباعهم وكانت حسنة لاستراحوا ، ولا يحصل لهـــم

Scanné avec CamScanner

ذلك إلا عبر منهج معين يسلكونه ويلتزمون به وهو الإسلام الذى هو دين الأنبياء جميعاً قال تعالى :" محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعـاً سـجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التـوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الـزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا عملوا الصلاحات منهم مغفرة واجراً عظيماً . نسأل الله سبحانه وتعالى بمنه وكرمه أن يجعلنا منهم .

ثم قال :

لـيس حـرف لوحـده بمفيـد أي معـنى ولـيس عنـه غنـاء
ويزيـد الكـلام لفظـاً ومعـنى بحـروف فى تـركهن اعتـداء

من أوجه الشبه البالغة بين الأحرف والناس أن الحروف متجانسة بصفاتها وأشكالها والنـاس مدنيون بطباعهم وأخلاقهم فكما أن الحرف الوحيد لا معنى له وإنما يسمى هجـاء فكـذلك الناس فالإنسان لا يستغنى عن بنى جنسه أبداً بل فى أيديهم يولد وعلى أكتافهم يحمل بعد موته لو استغنى الإنسان يوماً ما عن الناس لاستغنى عنهم فى هاتين الحالتين إذ لا يريـد أن يـروه عرياناً إلا أنه لابد من الناس فيهما وإلا لمات إثر ولادته أو لأنتن بعد موته ، ولـذلك دعـا الإسلام إلى اجتماع الناس ونهى عن الافتراق والاختزال والانعزال قال عليه السلام :" عليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية " وكما أن الحرف وحيداً لا يفيد فإنه فى سـائر الأحرف لا يستغنى عنه ، ولو حذفنا ولو حرفاً واحداً من أى لغة كانت لن يتمكن أهلها من النطق بها كما يريدون بل تكون مشوهة ، فالحاء من كلمة الحكمة مثلاً لو حذفت لفـسدت المعنى ولو حذفت الكاف لصارت حمة ولو حذفت الميم لأصبحت حكة ولو سـقطت المـيم لانقلبت حكماً ، فأى حرف فى الكلمة لابد منه لأداء المعنى المراد فكذلك ينبغى للنـاس أن يكون لكل منهم دور فى الحياة . وكثير ما حكى بن حزم رحمه الله تعالى أن شيخه كان يقول له دائماً إن الإنسان إذا نظر إلى ما حوله لاستحيا أن لا يكون له دور فى الحياة فهو لم ينسج ما يلبسه ولم يبن ما يسكنه ولم يرب ما يركبه ولم يزرع ما يأكله بل قدم كل ذلك له إخوانه مـن

Scanné avec CamScanner

الناس أفيرضى لنفسه أن يكون كل أولئك يخدمونه وهو لا يخدم أحداً ! والله إن ذلك لحكمة عظيمة فلابد للإنسان أن يكون له دور فى الحياة إما أن ينفع الناس فيكون أفضلهم وإمـــا أن يضرهم فيكون أسوأهم .

ومن أوجه الشبه البالغة بين الأحرف والناس أن الكلام يزداد لفظاً ومعنى بقدر كثرة الحروف المتكونة له وبسقوط أي كلمة منه يختل معناه أو يعطى حكماً آخر فكذلك الناس كثرهم رحمة وزيادة فى الخير وجمال للكون إذ لكل إنسان دوره فى الحياة ، وهى الوجهة السليمة فى الأديان كلها ورد فى التوراة أن الله تعالى قال لنوح بعد الطوفان " إملؤا الأرض " وقـــال تعـــالى فى القرآن الكريم :" ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئـــاً كبيراً " واعلم ان الاتجاه إلى تحديد النسل والحد من أبناء آدم هى وجهة نظر الطائفة المفسدة فى الكون وهى وجهة غير إسلامية لا تؤمن بالخالق ولا بالرزق المقسوم بين خلقه ، وهـــدف تلك الطائفة المفسدة فى الكون من تلك الدعوة التى تدعو إليها هو استئثارها بخيرات العـــالم التى تضن بها على من سواها وفوق كل ذلك خوفها من محاصرتها بذوى الديانات الـــسليمة المؤمنة بأن الكثرة رحمة ونعمة وقوة ، سئل حكيم فى الصين عن كثرة الشعب الصينى ومـــا توقعه للمستقبل فقال :" إن لنا بكل فم آكل يدان عاملان ولن يغلب فم واحد آكل يـــدين يعملان " فالإسلام يعدد الزوجات ويعتزّ بالبنين والبنات " فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ".

ثم قال :

إنمـــا النـــاس للطبـــاع أون وبمـــا تحتـــوي تـــسيل الإنـــاء

إنما الناس أوان وأوعية ملؤها طباعها ! قال تعالى :" ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها " فأثبت سبحانه للنفوس فجوراً وقدمه لأنه أكثر فى النفوس وأثبت لها تقوى وأخره لأنه أقل ، ثم خيّر النفس فى الاختيار بين ذلك ، ونظير ذلك قوله تعالى :" إنا هديناه السبيلا إما شاكراً وإما كافورا " فعبر عن الشكر بالفاعل وعن الكفر

Scanné avec CamScanner

بالفعول لأنه أكثر وقال تعالى :" وهديناه النجدين " فنفوس الناس مليئة بالخير والشر معاً إلا أن لها حرية الاختيار فى ذلك ، واختلف أهل الكلام كعادتهم فى ذلك فقال بعضهم بالجبر وقال آخرون بالكسب وقال آخرون بالاختيار وهو مما لم يكلفوا بالبحث عنه أصلاً ولا فائدة فى الجدال والخوض فيه وإنما كلفوا بالعمل قال عليه الصلاة والسلام :" ما منكم من أحد إلا وقد كتب الله مقعده من الجنة أو النار فقالوا ففيم العمل يا رسول الله فقال عليه السلام "اعملوا فكل ميسر لما خلق له " فقطع الصادق المصدوق عليه السلام دابر الشقاق والخلاف فيما لا ينفع وحضهم على الإيمان والعمل الصالح الذى هدانا الله تعالى بمنه وكرمه لاعتناقه وإليه ندعو الناس جميعاً والحمد لله كثيراً .

ثم قال :

وكبار النفوس يعمرها الب ر ويحيى بروحها العظماء

جماع خصال الفطرة السليمة التى ارتضاها الله سبحانه لعباده المؤمنين جميعاً والتى تميل إليها ذوى النفوس الكبيرة ويشرف بالتحلي بها العظماء هى البر ، [والبر حسن الخلق كما قال عليه الصلاة و السلام] وحسن الخلق هو الهدف السامى الذى حصر الله ورسوله عليه السلام حكمة الرسالة فيه قال تعالى :" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " ورحمة العالمين هى أخلاق المسلمين لو التزموا بدينهم وقال عليه السلام :" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " فالأخلاق الكريمة والطباع السليمة من الصدق والإخلاص والعدل والتواضع والرحمة والمحبة واللطف واللين هى جواهر الإسلام ! وقد وهم كثيرون فى حقيقة الإسلام وجوهره ممن حصروه فى الشعائر التى هى وسائل لتحقيق الأهداف التى هى الأخلاق الكريمة قال تعالى :" إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر " وقال تعالى :" كتب عليكم الصيام كما كتب على اللذين من قبلكم لعلكم تتقون " ولو سادت مكارم الأخلاق بين المسلمين لعمت رحمة الإسلام العالمين جميعاً فلم يقل سبحانه وتعالى وما أرسلناك إلا رحمة للمسلمين وإنما قال رحمة للعالمين أى حتى الشجر والحجر .

Scanné avec CamScanner

واعلم أن الرحمة تعم بالدعوة إلى الله تعالى والدعوة قسمان دعوة خاصة ودعوة عامة فالدعوة الخاصة نصيب ثلاثة وهم العلماء والأمراء والأغنياء فالعالم يدعو إلى الله بعلمه والأمير يـــدعو إلى الله بملكه وحكمه والغني يدعو إلى الله بماله ، ولا يشارك أحد هؤلاء الثلاثة فيما يدعون به إلى الله تعالى بل هو حكر عليهم فقط وإذا لم يكن الأمر كذلك اختل ميزان الدعوة اخـــتلالاً عظيماً كما هو المشاهد فى زماننا ، فترى جاهلاً أمياً جديراً بأن يتعلم متصدراً للدعوة وبكل قوة وتلك مصيبة كبرى وإنما ذلك حظ العلماء فقط قال عليه السلام :" إذا أسندت الأمـــور إلى غير أهلها فانتظر الساعة " أي توقع الأسوء فالأسوء ، وترى طائفة من الناس لا تحكـــم أي شبر من الأرض إلا أنها تحاول فرض آرائها على الناس بالقوة وبحد السيف وتلك جريمـــة كبرى وهى مشكلة التطرف إلا أن لها أسبابها ، وإنما يحمل الناس على الدين بالقوة الحـــاكم وحده ، ولا بأس بأن يشارك الجميع فى الدعوة إلى الله بالمال بقدر ما آتاه الله تعالى منـــه ولا يحاوله من ليس فى وسعه ابداً وإنما يتعالم من ليس بعالم ويتحاكم من ليس بحاكم !

وأما الدعوة العامة التى يشترك فيها جميع المسلمين وهم مأمورن بها جميعاً وجوباً ومـــسئولون عنها أمام الله سبحانه وتعالى فهو قوله عليه السلام :" إنكم لن تـــسعوا النـــاس بـــأموالكم فسعوهم بأخلاقكم " فحسن الخلق هى الدعوة العامة المفتوحة بابها لكل مسلم عالماً كـــان أو جاهلاً حاكماً كان أو محكوماً غنياً كان أو فقيراً إذ لا يخلو مسلم من خلق حسن وإلا لم يكن مسلماً ، واعلم أن هذه الدعوة العامة هى أشرف الدعوة إلى الله إذ هى التى لا تشوبها الرياء أبداً بخلاف سواها من سائر الدعوات التى يتنافس فيها الذين لا يعلمون بغير علـــم ، وهـــذه الدعوة العامة هى التى جعلت القبائل والشعوب والأمم تؤمن برسالة الصحابة الأجلاء الذين جابوا جميع أرجاء الكون لا بسيوفهم وإنما بأخلاقهم الطيبة وإنما حملو السيوف فقط ضد مـــن وقفوا أمام الدعوة العامة ولنا فى ذلك رسالة البر إن شاء الله تعالى .

ثم قال :

وصغار النفـــوس يـــسكنها الـــشـــ ر ويعـــــيى بحملـــــها الـــــضعفاء

Scanné avec CamScanner

وإذا كانت النفوس الكبيرة تتحلى بالبر وحسن الخلق فإن النفوس الصغيرة الحقيرة تتصف بالشر وسوء الخلق ، وكما أن حسن الخلق هو جماع كل خير فإن سوء الخلق هى جماع كل شر قال عليه السلام : " ألا أنبئكم بخياركم وأقربكم منى منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الذين يألفون ويؤلفون الموطئون أكتافاً ألا أنبئكم بشراركم الثرثارون المتكبرون المتفيقهون " والعياذ بالله تعالى .

واعلم أنك متى رأيت انساناً سيئاً فى خلقه فإنه ضعيف إذ لا يدعوه إلى سوء الخلق كالكذب والخيانة والاحتيال والتكبر إلا ضعفه ولو كان قوياً لكان صادقاً وفياً مخلصاً متواضعاً .

ثم قال :

إنما النفس طفلة تتمنى كل يوم من رها ما تشاء
لا ترى النفس غير ما تشتهيه وهوى النفس نقمة وبلاء

النفس الآدمية خصوصاً وسائر الكائنات عموماً غريبة وعجيبة إذ هي مطاعة ومطيعة فى آن واحد ! فرغم أن لكل نفس سلطتها الكامنة فى حاملها إلا أنها تأتمر وتنتهى بقوة إرادته ، وأما إذا أهمل النفس حاملها وتركها وسلطتها فإنها لا تميل أبداً إلى ما يضره ويؤذيه فقط من الهوى الذى قد يصير إلهاً يعبد من دون الله تعالى قال سبحانه :" فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى " وقال سبحانه :" أفرأيت من اتخذ الهه هواء وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تتذكرون " .

ثم قال :

وعلاج الهوى اتقا أشرار وبأهل التعفف الاقتداء

وإذا كانت النفوس الصغيرة تسوء خلقها كما ذكرنا فإن لها علاجاً واحداً فقط وهو الاستعانة بالله سبحانه وتعالى ومصاحبة الأخيار ذوى النفوس الكبيرة والاخلاق الحميدة ، فإن النفوس

Scanné avec CamScanner

تكتسب الخلق السيء من الأجواء التى تعيش وتتربى فيها كما تقدم ومتى أرادت أن تنزع نفسها من ذلك فإن لها علاجاً واحداً وهى الابتعاد عن تلك الاجواء السيئة والسلوك فى منهج آخر ، ولا تجد ذلك إلا فى مجانبة الفجار ومصاحبة الأخيار والصالحين من العباد قال عليه الصلاة والسلام :" اللهم أنت الله الملك الحق لا إله إلا أنت أنت ربى وأنا عبدك عملت سوءاً وظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفر لي ذنوبى كلها فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدينى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت لبيك وسعديك والخير كله فى يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك أستغفرك وأتوب إليك " .

Scanné avec CamScanner

الباب السابع

فى جمال العقل

زينة النفس البشرية وجمالها عقلها الذى امتازت به عن سائر النفوس ! قال تعـــالى : " لقـــد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم " .

وإنما المقوم هو العقل بدليل أن ليس فى خلق الله تعالى ما هو معوج قال تعالى :" الذى أتقن كل شيء خلقه " ! إلا أن الإنسان أحسن منها جميعاً لأن العقل الذى امتاز به يقومه ويعدله.

[والعقل هو الانضباط فى الأمور]، ولا يخلو ذات نفس من عقل أبداً وإنما العقول تتفاوت فلكل عقل بحسبه قال تعالى:" ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى "ولا يهتدى مالا عقل له ، وإنما غاية الأمر أن سائر الكائنات الحية عقولها محدودة لم تصل لمرحلة البيان والتمييز التى شرفت بها الآدميون ، ولصغر عقولها لم يكلفها ربها بشيء وإنما هداها فقط إلى طرق معاشها ، وخالفنا الإمام بن حزم فى ذلك رحمه الله تعالى .

وقد شرف الله العقل السليم وجعله مناط التكليف بأوامره وهو سلطان النفس وبه يساس أمر العالمين ، وكفى العقل شرفاً أن كل ما صنعه أبناء آدم من لدن أبينا آدم وإلى قيام الساعة فهو من نتائج فكر العقل وحسن تدبيره ، فلولا العقل لما رأيت ملابس منـــسوجة ولا عمـــارات شاهقة ولا رأيت زينة ولا جمالاً ولا دواوين مدونة ولا دولا ولا ســـلاطين ولا مـــساجد ولا أساطير فتبارك الله أحسن الخالقين .

قال الناظم :

وأرى العقـــل حكمـــة وانـــضباطاً في أمـــور والنـــاس فيـــه ســـواء

العقل عقلان عقل دين : " وهو الأخذ بالفضائل " إذ من لم يأخذ بالفضائل غير عاقـــل وإلا لأخذ بها ، لأنها جماع الخير كله ولا يرغب عن الخير عاقل !

Scanné avec CamScanner

وعقل دنيا :" وهو الانضباط فى الأمور ومحاولة وضع كل شيء فى موضعه " فـإذا أصـاب ووفق فى ذلك سمي حكمة وهى أشرف من العقل قال تعالى :" يؤتى الحكمة من يشاء ومـن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيرا " وإن كان أبناء آدم عقلاء إلا أنهم ليسوا كلهم حكماء .

والناس يتفاوتون فى الذكاء الذى هو زينة من زينات العقل لكنهم لا يتفاوتون فى العقل نفسه ، فهم بين من يفهم مسألة في ساعة ومن يفهمها فى أقل أو أكثر بحسب ذكاء كل منهم ، وقد يظن كثيرون من الناس أن ذلك تفاوت فى العقل وليس كذلك ، فالأحكام العقلية التى هـى الضروريات منها لا تختلف باختلاف الناس ، كإدراك كل واحد منا أن زيـداً لا يكـون فى البيت وخارجه فى آن واحد ، فالعقل لا يخطئ فى ذلك أبدا إذ خلقه الله سبحانه كذلك وجعله حاكماً بين الناس فيما اختلفوا فيه من الأقوال والآراء ، إلا أن له حدوداً لا يتخطاها ، ففـي الأمور الدنيوية المجردة العقل هو الأول وما سواه تابع له ، وأما فى الأمور الدينية فالنص هـو الأول والعقل تابع له إذ الدين صادر من خالق العقل ولا يحكم العقل على خالقه وإنما يتبـع حكمه وأوامره سبحانه .

ثم قال :

وهـو القلـب والقلـوب أوان جمعـت فيـه فطنـة أو غبـاء

سبق وأن ألمحنا إلى أن القلب والعقل شيء واحد وإنما يطلقان باعتبارات مختلفة فتقلب المرء بين الخير والشر هو المسمى قلباً واختياره للصواب والسداد منهما هو المسمى عقلاً ودليل ذلـك قوله تعالى :" أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها " فأثبت المـولى سـبحانه للقلوب عقلاً إذا فهمت وعقلت عن الخالق سبحانه ، ثم نفى عنها الفهم والعقل بقوله تعـالى :" فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور " فأثبت للقلوب العمى ونفى عنه العقل متى ضلت عن الطريق المستقيم . وقال تعالى حاكياً عن الكفار الـذين لم يهتـدوا لنور الإيمان " إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون " وقـال تعـالى :" أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا " ولا ينافي ما

Scanné avec CamScanner

في هذه الآية ما سبق أن ذكرناه من أن لكل شيء عقلاً بحسبه فإن الله سبحانه شبه الكفار بالأنعام فى عدم كمال العقل لا فى عدم العقل مطلقاً بدليل قوله تعالى :" بل هم أضل سبيلاً " فأنزلهم بذلك تحت مستوى الحيوانات من العقل البسيط الذى أثبتناه لها قال عليه السلام : " القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء " ، وكما أن النفوس أوان وأوعية للطباع المختلفة فإن القلوب أوان وأوعية للعقول والحكم والمعارف ، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك واملأها بالحكمة والمعرفة بك والشوق إلى لقاءك ياذا الجلال والإكرام .

ثم قال :

إنما العقل حاكم مستبد لذوى الرأى منه يرجى القضاء

شرف الله سبحانه العقل وأسند إليه وظيفة الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه من فهمهم لسائرالاشياءكالنصوص وسائر الأحكام الشرعية والعقلية ، وهو الذى يتولى جمع النصوص في ذلك والمقابلة بين الآيات المتعارضة فى ظاهرها ومحاولة الجمع أو الترجيح بينها ، كما أنه هو الذى يسبر الآراء والأهواء المختلفة ويقارن بينها ويرجح ما يراه راجحاً .

ولا يعنى ذلك أنه يتقدم على النصوص ويخالف ما جاءت به أبداً ، وإنما ينطلق العقل مما فهمه من سائر النصوص في أحكامها ، فوظيفته فهم النصوص لا الحكم عليها قال تعالى :" وأنزلنا إليك الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط " والكتاب هو الشرع والميزان هو العقل وقد قدم الله سبحانه عليه الكتاب فى الذكر فهو تابع له ومستند إليه فى أحكامه .

واعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يشبهه شيء من خلقه قال سبحانه :" ليس كمثله شيء " ولو أشبهه سبحانه شيء لكان العقل لما جمع الله فيه من صفات الجلال والجمال ، وما يرد فى الأبيات التالية هو مثل قوله سبحانه وتعالى حاكياً عن الخليل إبراهيم عليه السلام :" فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي " فوازن الخليل عليه السلام بين الإله وبين سائر المخلوقات التى يعبدها قومه ليقيم الحجة عليهم ويريهم أنها جميعاً قابلة للنقص والتحول

Scanné avec CamScanner

والأفول فكفر بها جميعاً وقال :" يا قوم إنى برئ مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطـــر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين " وهو ما سيقوم به الناظم فى الأبيات الآتيـــة فى مقارنته بين العقل والإله ثم يحكم على العقل بأنه مخلوق صغير من خلق الله سبحانه وتعـــالى والذى دعانا إلى ذلك هو المقارنة بين النظرة الإسلامية السليمة وسائر النظرات والتوجهات الضالة التى أثيرت حول العقول التى عبدتها طائفة في زمان ما وألهتها طوائف أخرى فى الماضى والحاضر الذى نعيشه اليوم .

ثم قال :

وهـــو فى الجـــسم كالإلـــه تمامـــاً لـــيس جـــسماً ومـــا لـــه شـــركاء

قد كسى الله سبحانه وتعالى العقل بكثير من صفات الجلال والجمال فهو بمثابة إلـــه مملكـــة الجسم ، لدرجة أن توهم قدماء اليونان أنه الإله ذاته وليس كذلك بل هو مخلوق صغير إلا أن شأنه كبير !

فمما أعطاه الله العقل وامتاز به على سائر الجسد وأعضائه كلها أنه ليس بجسم ، وقد اختلف القدماء فى ذلك فرأى بعضهم أنه جوهر يشغل حيزاً من الفراغ ، ورأى آخرون أنه عـــرض حالّ فى غيره ، ورأى آخرون أنه مجرّد ليس بحامل ولا محمول ، ورأى ابن حزم فى التقريب أنه عرض، ونرى فى ذلك أنه سر من أسرار المولى سبحانه وتعالى لا يدرى ما هو إلا خالقه .

ومما أعطاه الله سبحانه العقل أن نفى أن يكون له شركاء في ملكوت الجسم قال سبحانه :" ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه " فالعقل واحد لا شريك له فى أعضاء الجسم بخـــلاف سائر الأعضاء كلها فقد تتعدد ويعيش صاحبها حتى الرأس واللسان ، والله سبحانه وتعـــالى ليس جسماً وما له شركاء فى ملكه .

ثم قال :

هـــو غيـــب ولا يحـــاط بعلـــم عنـــده الجهـــر والخفـــاء ســـواء

Scanné avec CamScanner

مما أعطاه الله سبحانه العقل من الجمال والجلال أنه غيب وشهادة فى آن واحد فهو غيب فى الجسم لا يدرى أحد أين هو إلا أنه شاهد عبر تحكمه فى الأفعال بوجوده !! .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن نفسه بمثل ذلك فقال :" هو الأول والآخر والظاهر والباطن " أى الظاهر بأفعاله الباطن بحقيقته .

ومما أعطاه الله سبحانه وتعالى العقل أنه لا يحاط به علماً فلا يحده أحد حداً جامعاً مانعاً أبداً ، وقد اختلف أهل الكلام فى ذلك كثيراً وذهب ابن حزم رحمه الله تعالى إلى أن العقل :" هو الأخذ بالفضائل " وهو تعريف جيد جداً إلا أن ذلك هو العقل من حيث الدين ، وقد أقر ابن حزم نفسه بذلك فى التقريب ثم أراد أن يحده بحد آخر فاضطرب فى ذلك كغيره ، وقد أخبر الله سبحانه عن نفسه بمثل ذلك فقال :" ولا يحيطون به علماً " .

ومما أعطاه الله سبحانه وتعالى العقل أنه لايتقيد بقانون المسافات فهو يفكر فيما هو قريب منه كتفكيره فيما هو أبعد من ذلك حرفاً بحرف ، وعنده الخفي والظاهر بمنزلة سواء وترى المرء يفكر فى نفسه ورأسه ويده ثم فى طرفة عين أو أقل يفكر فى أبينا آدم وبينهما آلاف السنوات كما تراه يفكر فيما هو قريب منه كحبل الوريد ويغمض عينه فيجول عقله فى كل ما أراد قريباً كان أو بعيداً كمكة والمدينة والقطب الجنوبى أو الشمالى وبينهما آلاف الأميال ، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن نفسه بمثل ذلك فقال :" سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار " .

ثم قال :

هو أعلى وما له من مكان أو زمان وهل له أكفاء

مما أعطاه الله سبحانه العقل في ملكوت الجسم أن جعله أغلى وأعلى قدراً من كل شيء فى الجسد إذ الإنسان بدونه لا يساوى شيئا فلا يوزن العقل بشيء من الجسد إلا رجح به ، فقد يكون الإنسان إنساناً بلا يد ولا رجل ولا عين ولا لسان ويعيش حياته وينتج ويفيد إلا أنه لا

Scanné avec CamScanner

يكون إنساناً أبداً بلا عقل ، بل ينزل لمستوى الحيوانات متى فقد أعلى شيء قدراً فيـــه وهـــو العقل .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن نفسه بمثل ذلك فقال سبحانه :" سبح اسم ربك الأعلـــى " فالله أغلى وأعلى من كل شيء ، ومما أعطاه الله سبحانه العقل فى ملكوت الجسم أن جعله بلا زمان ولا مكان فلا يدري أحد منا أين عقله ولا يدرى متى عقل بالضبط ، وقـــد اختلـــف العلماء فى ذلك اختلافاً كثيراً محله كتب أهل الكلام فذهب بعضهم إلى أنه فى الدماغ ، وقال آخرون إنه فى القلب ، وعلى كونه فى الرأس الإمام الفقيه أبو حنيفة شيخ الفقهاء رحمـــه الله تعالى ، والعلم الحديث يكاد يثبت ذلك ، وأما زمانه فلا يدرى أحد منا متى عقل بالـــضبط ، وقد أخبر الله سبحانه عن نفسه بمثل ذلك فقال :" ليس كمثله شيء " والمعنى أنه ما من مخلوق يخلو من زمان أو مكان والله سبحانه وتعالى ليس مخلوقاً فلا زمان له ولا مكان ! بل هو خالق الزمان والمكان جميعاً سبحانه ، وقد وهم فى ذلك الإمام بـــن تيميـــة رحمـــه الله جريـــاً وراء المتشابهات التى أولع بها وجعلها جزءاً من عقيدته وفتن بها كثيراً من الناس عفى الله عنه وغفر له ، ولو كان الله له مكان أو زمان لكان شبيهاً بخلقه إذ الخلائق لا تخلو منهما أبداً وقد أخبر عن نفسه سبحانه أنه ليس كمثله شيء .

ومما أعطاه الله العقل أن جعله بلا كفء فى البدن كله وقد أخبر عن نفسه سبحانه بمثل ذلـــك فقال :" ولم يكن له كفؤاً أحد " .

ثم قال :

وهـــو الـــرب للحـــواس جميعـــاً ولـــه فـــوق عرشـــها الاســـتواء
وهـــو الحـــق والمـــدبر أمـــراً ولـــه الحكـــم أو لـــه الإمـــضاء

مما أعطاه الله سبحانه وتعالى العقل أن جعله كالرب للحواس جميعاً فلا تتحرك حاســـة إلا بـــه فالإنسان لا يقوم إلا إذا فكر بعقله فى القيام أولاً ولا يقعد إلا إذا أمره عقله بذلك بل لا يمد

Scanné avec CamScanner

يده ولا يقبضه ولا يرفع بصره ولا يغمضه إلا إذا أمره عقله بذلك وقد أخبر الله سبحانه عن نفسه بمثل ذلك فقال : " الله الصمد " والصمد هو الذى يصمد إليه كل الأمور .

ومما أعطاه الله العقل أن جعله متحكماً فى أعلى وأشرف مكان فى ملكوت الجسم وهو القلب أو الدماغ إلا أنهما ليسا بعقل في ذاتهما بل هما مكانان عظيمان يـــديرهما العقـــل بحكمـــه ، والمقصود بالقلب العضو الذى يصفي الدماء وهو أشرف الأعضاء والمقصود بالدماغ مجتمـــع الأفكار وهو أعلى مكان فى الجسد وهما أشرف عضوين فى ابن آدم والذى يديرهما ويتحكم فيهما هو العقل ، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن نفسه بمثل ذلك فقال سبحانه :" الـــرحمن على العرش استوى " فأخبر سبحانه أنه يدير ويحكم أعلى وأشرف مكان فى مخلوقاته جميعاً .

وقد ذهب ابن تيمية رحمه الله تعالى إلى أن العرش مخلوق إلا أنه لا أول لخلقه ! وهو كـــلام لا يفهمه حتى قائله، ولنا كتاب فى الرد على ذلك سميناه" نقد النقد" إن شاء الله ذكر ذلـــك فى آخر كتابه نقد مراتب الإجماع وهو الكتاب الذى حاول عبره أن يناطح الجبل الأشم ابـــن حزم فيما ذهب إليه من الاجماعات وخاصة فى قضية العرش .

يـــا نـــاطح الجبـــل الأعلـــى بهامتـــه أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

ومما أعطاه الله سبحانه العقل أن جعله حقاً وأحكامه الضرورية لا تخطئ أبداً وإنما يخطـــئ ذوو العقول لا العقل نفسه وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن نفسه بمثل ذلك فقال :" فـــذلكم الله ربكم الحق " .

ومما أعطاه الله سبحانه العقل أن جعله مدبراً للأمور فى ملكوت الجسم بل فى العالم الـــسفلي كله ، فالعقول هى التى تقود الجيوش وتبنى الدول وتـــسوس الأمـــم وتـــصول وتجـــول في أرجاءالفضاءوأعماق البحاروقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن نفسه بمثل ذلك فقـــال :" يـــدبر الأمر من السماء إلى الأرض " .

Scanné avec CamScanner

ومما أعطاه الله سبحانه العقل أن جعله حاكماً بين الناس فيما اختلفوا فيه وقد أخبر عن نفسه بمثل ذلك فقال : "وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله " ولا يمكـــن رد ذلـــك إلى الله سبحانه وتعالى إلا عبر العقول لا سواها، وإذا لم يكن العقل حاكماً فى أمر ما فإنه هو الـــذى يمضى على الحكم بالقبول أو الرد وقد أخبر المولى سبحانه وتعالى عن نفسه بمثل ذلك فقال :" والله يقضى بالحق والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء ".

ثم قال :

هـــو أولى بكـــل وصـــف جميـــل وأقـــــرت بـــــذلك الأعـــــضاء

مما أعطاه الله سبحانه وتعالى العقل أن جعله حرياً وقمناً بكل كمال وجمال وبعيداً وبريئاً مـــن كل عيب ونقصان فالعقل كبير وواسع ونافع وقوي ، وقد شهدت بذلك سائر الأعضاء التى تقبل الاتصاف بالنقص ويكون ذلك جمالاً لها فمثلاً ، قولنا للإنسان عقله كبير أو واســـع او قوي نعت ومدح له وأما قولنا رجله كبير أو واسع فذم له ، وقولنا أنفه أو شفته أو سرته أو سنه صغير نعت ومدح له وأما قولنا في عقله أنه صغير فهو ذم له ، فالعقل يقبل أن يوصـــف بكل ما هو جميل ويأبى أن يوصف بكل ما هو نقص والأعضاء شاهدة بذلك! .

وإلى هنا يكون الناظم قد ذكر الكثير والكثير مما ميز الله سبحانه العقل وفضله به على ســـائر الأعضاء وقد اختلف الناس قديماً وحديثا فى العقل فذهب اليونان إلى تأليهه وذهب المسلمون جميعاً إلى أنه مخلوق إلا أنهم اختلفوا فى قيمته ، فبالغت المعتزلة فى العقل وفى تعظيمه وتحكيمـــه وتقديمه على النصوص فأخطأو كثيراً وكثيراً ، واستخف بالعقل آخـــرون اســـتخفافاً كـــبيراً وأخرجوه من الحكم وكفروا به فأصبحوا فى ذيل الأمم مع كون الله سبحانه وتعالى يخاطبـــهم بقوله تعالى :" لعلكم تعقلون " لعلكم تتفكرون " لعلكم تذكرون " .

وتوسط فى العقل قوم فرأوه نعمة من الله تعالى يفهم بها خلقه كلامه وتتبع أوامره سبحانه وهو مذهب ابن حزم رحمه الله تعالى والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

Scanné avec CamScanner

ثم قال :

غـــير أن العقـــول كانـــت صـــغاراً ثم تمـــــت ومـــــالهن بقـــــاء

من هنا بدأ الناظم يثبت كون العقل مخلوقاً صغيراً ، فإذا كان الله قد كساه بما جعله كـــبيراً إلا أن من أهم صفات النقص فى العقول أنها تبدأ صغيرة ثم تنموا وتدرك ما حولها شيئاً فشيئاً ! فترى الإنسان فى أوائل حياته إثر ولادته متحلياً بالعقل البهيمى تماماً لا يدرك شيئاً مما حولـــه اللهم إلا ثدي أمه الذى يلتقمه إثر ولادته بإلهام من الخالق سبحانه وتعالى ، ومثل الإنسان فى ذلك سائر الحيوانات وتراه لا يأكل ولا يشرب إلا لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ولا يعرف أحداً من الناس حتى أمه التى ولدته وإنما يحن إليها برحمة من الله سبحانه وتعالى ، وتـــراه يقـــضى حاجته على نفسه وعلى من يحمله دون أن يحس بذلك ولا يبالي بانكشاف عورته ولا يفـــرح بمولود ولا يحزن على مفقود ، إلا أنه مع كل ذلك عاقل إجماعاً ، إذ لا يقال عليه أنه مجنـــون بل يقال عليه إنه طفل صغير لم يبلغ عقله مرحلة التمييز بعد ، وإن ذلك لمن أقوى الأدلة على ما اخترناه من كون الحيوانات تعقل إلا أنها لم تبلغ مرحلة التمييز .

أخبرني الثقة الصدوق وهو فوق الثمانين من عمره متعه الله بالصحة أن البقرة تحمل حـــتى إذا أحست بالوضع ذهبت بعيداً واختفت فى مكان لا يهتدى إليه إلا بعد عناء شديد فوضـــعت ولدها هنالك وأرضعته لبناً كافياً ليوم كامل ثم تركته هنالك وحيداً ، ولحكمة يعلمها الله تعالى لا يغادر المولود ذلك المكان أبداً وإذا هبت الرياح وأمالت الأعشاب خفض المولود رأسه لئلا يراه أحد ، ولو وطء مخلوق على ذيله لا يتحرك لئلا يكتشفه أحد ! حتى إذا مـــا ســـرحت الأبقار إلى مرعاها من اليوم الذى يلى ذلك اليوم اختلست الأم غفلة الراعي وتملست خفيـــة إلى ذلك المكان الذى أخفت فيه المولود فإذا ما اقتربت منه خـــارت خـــوار المحـــب لحبيبـــه فاستقبلها المولود وأرضعته لبناً كافياً إلى الغد وهكذا .

وأخبرنى الرعاة أنها تفعل ذلك ضناً بلبنها إلا على مولودها فقط إذ لو وضعته فى البلد لتمكن الناس من حلبها وذلك يضعف المولود ، إلا أن الراعي أذكى منها بكثير فإنه يكتـــشف أنهـــا

Scanné avec CamScanner

ولدت بنتوء ضرعها وصغر بطنها بعدما كان ممتلأ بالحمل فيختفى لها بالمرصاد ويتتبع أثرها إلى أن يعثر عليها مع المولود فيصادره منها وتتبعه وهى تخور خواراً شديداً ، ولو أخذ الراعـــى المولود من ذلك المكان خفية لأنكرته الأم واسترابت فيه ولم ترضعه بعد ذلك أبداً .

وأنا رأيت شيئاً من ذلك بأم عينى " فسبحان الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى " .

ثم إن من صفات النقص فى العقول أنها تخرف فى آخر العمر وترجع صغاراً كما بدأت وربمـــا تزول وذلك بعد أن كانت كباراً تخر لها الجبال قال تعالى :" ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا تعقلون " والله سبحانه وتعالى منزه عن كل ذلك فالعقل ليس إلهاً بل هو مخلوق صغير .

ثم قال :

يعتريهـــا الـــذهول حينـــاً وتنـــسى ولـــدى العـــدّ شـــأنها الإعيـــاء

من صفات النقص فى العقول أنها تجهل وتذهل وتنسى ، والفرق بين الثلاثة أن الجهل هو مالم يسبقه علم والذهول هو ما أعقبه جهل والنسيان هو ما اختفى من العلم السابق إلا أنه قابـــل للتذكر بخلاف الذهول فلا يتذكر أبداً ، وكل ذلك من صفات النقص الواردة على العقـــل بخلاف المولى سبحانه وتعالى قال تعالى :" لا يضل ربى ولا ينسى ".

والغريب أن الله تعالى الذى أخبر عن نفسه أنه لا يضل ولا ينسى إلا أن له ســـبحانه كتابـــاً ولوحاً وقلماً مع كونه لا يضل ولا ينسى فخلو الإنسان الذى يضل ويجهل ويخطئ وينسى من تلك الثلاثة خسران مبين قلت:

أخـــي قيـــد علومـــك بالكتابـــه ولا تـــأمن علـــى النـــسيان درســـا
فربـــك قـــال علمـــي فى كتـــابٍ وربـــك لا يـــضل ولـــيس ينـــسى

ومن صفات النقص فى العقول أنها تقع فى أخطاء عند الحساب وإن كان المخطئ هو صـــاحب العقل لا العقول نفسها إذ لغتها الحساب ! ومع كون العقل ذاته لا يخطئ فى الحساب أبـــداً إلا أن من الأعداد ما يعجز عنه العقل وينكص على عقبيه صاغراً رغم أنفه ! والله ســـبحانه

Scanné avec CamScanner

وتعالى منزه عن كل ذلك قال تعالى :" وما كان الله ليعجزه من شيء فى الـــسموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً " .

واعلم أن الحاسب الأول الذى حسابه فوق كل حساب هو الله سبحانه وتعالى قال ســـبحانه :" ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين " وقال تعالى :" وكفى بنا حاسبين " .

والحساب هو سر الحضارة الغربية الضخمة التى نراها بأم أعيننا ولا نعرف عن حقائقها شـــيئاً والدليل على ذلك أنه ما من آله أو أي شيء أنتجوه إلا وللحساب دوره فيه ، وقد دعـــا الله المسلمين جميعاً إلى تعلم الحساب ونوّه بقدره فقال ســـبحانه :" ولتعلمـــوا عـــدد الـــسنين والحساب " فعلم السنين مأخوذ من الكواكب والشمس والقمر إلا أن علم الحساب مستمد من العقول بل هو لغة العقول ، كما دعا النبى عليه الصلاة والسلام إلى تعلم الحساب فقال : " تعلموا الفرائض وعلموها الناس فإنه أول علم يترع من أمتى " وقد نزع ذلك العلم العظيم منهم كما قال عليه الصلاة والسلام لأنهم لم يعطوه حقه .

هذا ونعيش اليوم عالماً كله حساب بدءاً بأرقام الأموال المتداولة ومروراً بالهواتف الجوالـــة وانتهاءاً بالحاسوب الذى يقاد عبره الطائرات التى تطير بلا طيار ! .

ثم قال :

أعجـــز العقـــل جمـــع ضـــدين فيـــه وارتفـــاع النقـــيض منـــه بـــراء

من صفات النقص فى العقول أنها لا يجتمع فيها ضدان أبداً وان ارتفعا منـــه ، والنقيـــضان لا يجتمعان فيه أبدا ولا يرتفعان بل لابد من أحدهما ، كما أنه لا يمكنه أبداً أن يفكر فى شيئين معاً فى آن واحد ولو كان ذلك الشيء صغيراً .

والله سبحانه وتعالى منزه عن كل ذلك ولا يعييه شيئ كائناً ما كان قال تعالى :" وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديرا " .

Scanné avec CamScanner

ثم قال :

جـــل ربي عـــن أن يكـــون كعقـــل   زينـــة العقـــل عقلـــه والـــذكاء

وإلى هنا وصل الناظم إلى مثل ما وصل إليه الخليل إبراهيم عليه السلام وهو قوله تعـــالى :" قال يا قوم إني بريء مما تشركون إن وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين " فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

ثم ان الاستفادة بالعقول قديماً وحديثاً يكون بوضعها في موضعها وعدم تكليفها مالا تطيق ، وما سمي العقل عقلاً إلا لذلك ، والتأني والذكاء مساعدان على ذلك بل هي الحكمة كلها قال تعالى :" يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً " ســـبحانك اللـــهم وبحمدك لا علم لنا إلا ما علمتنا نستغفرك ونتوب إليك آتنا الحكمة وعلمنا التأويل برحمتك يا أرحم الرحمين .

Scanné avec CamScanner

الباب الثامن

فى جمال العلم

زينة العقل وجماله العلم ! قال تعالى :" وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون "

[والعلم هو الإدراك المنتفع به] وهو نوعان علم نقل وعلم عقل والأول أشرف من الثانى إلا أن لكل منهما قيمته ومكانته فى حياة الناس ، وقد دعا الله سبحانه وتعالى إلى تعلم العلمين معاً وقرن أحدهما بالآخر إذ لا يستغنى أحدهما عن أخيه قال تعالى فى أول ما أنزله من القرآن الكريم لأهميته :" وهو مفتاح القرآن الكريم " بخلاف فاتحة الكتاب فإنها أم الكتاب قال تعالى :" اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق " فأمر سبحانه بالقراءة وذكر الخلق عموماً والإنسان خصوصاً ثم قال سبحانه " اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم " فأمر بالقراءة مرة أخرى وذكر كرمه وامتن على عباده بنعمة القلم الذى لا يمسكه من الكائنات سوى الإنسان ، وذكر علماً لا يعلمه إنسان إلا بتعليمه سبحانه إياه ، والمعنى والله أعلم أن القراءة الأولى هى قراءة الخلق بكل ما احتوت عليه من الأسماء والمسميات والخصائص الكامنة فيه ، وهى العلوم العقلية المكتشفة بالتجارب وقد نزل بها أبو البشر من السماء ، وتعلمها لا يحتاج إلا إلى التجربة فقط والأخذ بالأسباب المؤدية إليه ، وأما القراءة الثانية فهى علم اللوح والقلم الذى لا ينال إلا عبر نقله وكتابته وتدوينه بالقلم ، وهو الذى لا يعلمه الإنسان أبداً ولا يصل إليه إلا بتعليم الله سبحانه إياه بكرمه المذكور ، وهو علم النقل ونور النبوة ، والملاحظ أن الله سبحانه قرن العلمين معاً باسمه إذ هما معاً منه وإليه .

أولهما : العلم الذى علمه آدم فى السماء ليسوس به الكائنات السفلية ويتولى أمرها .

ثانيهما : العلم الذى يتفضل به على من يشاء من عباده ليهدو الخلائق إلى الصراط المستقيم .

Scanné avec CamScanner

ففى وقت من الزمن وعلى حين فترة من الرسل قبل ألف وحوالي خمسمائة عام من الآن وقد عظمت ظلمات الجهل فى العالمين بالعلمين معاً وتاهوا فى مهالك الفتن والكفـــر والاقتتـــال والتخلف واللحوق بالحيوانات التى تفترس بعضها بعضاً بالجهل – إذ فقدت الأديان وحرفت وبدلت وذهب حبل الاتصال بين الخالق وخلقه – فى تلك الفترة بعث الله بفضله وكرمه نبيه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنزل عليه ملكاً فى بقعة نائية من الأرض لا يقرأ أهلها ولا يكتبون وإنما الرجس والأوثان يعبدون ولها يسجدون ! فدعاهم جميعاً إلى الإيمـــان بالله تعالى أولاً والعمل الصالح ثانياً ونبذ الشقاق والاختلاف والتقاتل ثالثاً .

وقد تصدر ذلك الذى جاء به النبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم كله قوله تعالى :" اقـــرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق الذى علم بالقلم علم الإنـــسان مـــالم يعلـــم " فهدى الله به صلى الله عليه وسلم العالمين وفتح به قلوباً غلفاً وأعيناً عميا وآذاناً صما .

واعلم أن العلمين معاً لا يستغنى أحدهما عن الآخر ولا ينتفع بهما حقيقة إلا اذا اقترنا باسم الله تعالى ، وفى وقتنا الذى نعيشه أخذت الطائفة المعتدية المفسدة فى الكون بالعلم الأول وجردته من الله تعالى فأصبح مادة صرفاً أنيقاً فى منظره خبيثاً فى مخبره ينفعهم غاية النفع كما يـــضرهم غاية الضرر إذ يسبب الأمراض والكوارث التى هم فى بدايتها ، ولو قرنوه باســـم الله تعـــالى والإيمان به لنفعهم فقط ولم يضرهم أبداً ، إلا أنهم مع ذلك سادوا به العالمين وتقلـــدوا زمـــام الكون !

ولا يعنى ذلك أن ما صنعوه لا ينفع بل هو نافع جداً وقد ساعد الكون فى القفـــز إلى الأمـــام أكثر فأكثر إلا أنهم لو قارنوه باسم الله تعالى لكان أجمل وأجمل

بينما أخذت الطائفة المؤمنة الساعية إلى الإصلاح فى الأرض بالعلم الثانى وتخلت عـــن العلـــم الأول نهائياً وهو خطأ كبير فصارت فى ذيل الأمم ! تلبس ما تنسجه غيرها وتأكـــل مـــن لم تزرعه بيدها وتبتهج بما يخترعه صغار الآخرين وإلى الله المشتكى ، ولـــن تتحقـــق الـــسعادة

Scanné avec CamScanner

للبشرية جميعاً إلا بالجمع بين العلمين معاً مع تزيينهما وتجميلهما بما جملهما الله به وهـــو اسمـــه سبحانه وتعالى .

قال الناظم :

وأرى العلـــم نهـــضة واكتـــشافاً وبـــه ســـاد قبلنـــا القـــدماء

لابد للعلم أن يكون نهضة وتقدماً واكتشافاً للجديد كل يوم وقفزة الى الأمام دائماً وإلا صار جهلاً وخمولاً وتخلفاً ورجوعاً إلى القهقرى ، وقل لي بربك ما فائدة علم لا يكتشف به جديد إن ذلك ليس علماً بل هو جهل بحقيقة العلم قال تعالى :" يرفع الله الذين امنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " وإنما الدرجات تقدم فى الدنيا والآخرة ، وقال تعالى :" قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون " وإنما لا يستويان لأن الذين يعلمون يتقدمون كل يـــوم في دينهم ودنياهم ! .

والعلم بنوعيه العقلي والنقلي قابلان للنهضة والتقدم والاكتشاف والقفزة إلى الأمام دائماً إلا أن ذلك يختلف بالنسبة لهما لانهما ليسا من مجال واحد والتسوية بينهما فى ذلك وغيره خطـــأ فاحش وقع فيه الكثير ممن يسمون أنفسهم بالمفكرين ودعاة النهضة والتجديد .

فالعلم الدينى علم نقل وهو منقول بشكله وحرفه لا يزاد فيه ولا ينقص منـــه لأن مـــصدره الخالق سبحانه لا عقول الناس ، وإنما يكون نهضته وتقدمه عبر العمل بما فيه وتطبيقه حرفيـــاً كما ورد ، وهو الإيمان والعمل اللذان لا يستغنى عنهما الكون أبداً فبقـــدر إيمـــان النـــاس وعملهم للصالح يزدادون تقدماً ونهضة واكتشافاً وقفزة للأمام ، إلا أن العمل الصالح لـــيس محصوراً فى الشعائر والعبادات فقط ! وقد وهم فى ذلك الكثيرون فالعمل الصالح هو كل مـــا ينفع الناس فى دينهم ودنياهم قال تعالى فى نبيه داود عليه السلام :" وعلمنه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملـــوا آل

Scanné avec CamScanner

داود شكراً وقليل من عبادى الشكور " فذكر سبحانه وتعالى العلم مرة واحدة وذكر العمل ثلاث مرات ولولا خوف الإطالة لأفضنا فى ذلك ، وذكر سبحانه وتعالى الصناعة والطـــيران وتحويل المادة وإنشاء العمارات والفن والمعامل وغيرها ثم ختم كل ذلك بقوله تعالى " اعملوا آل داود شكرا " لأن من لا يعلم ولا يعمل لا يشكر أبداً وإنما يكفر !

وقد علمنا الله سبحانه وتعالى بأن الدين الذى هو الإيمان والعمل الصالح لـــيس هـــو مجـــرد الشعائر قال تعالى :" ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب " فنفـــى ســـبحانه أن يكون الدين كله شعائر كما يظنون ثم قال تعالى :" ولكن البر من آمن بالله " فذكر الإيمان فى المرتبة الأولى من مراتب البر ، ثم ذكر الخدمة الاجتماعية فى المرتبة الثانية من البر فقال تعالى :" وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقـــاب " ، ثم ذكر الشعائر فى المرتبة الثالثة فقال تعالى :" وأقام الصلاة وآتى الذكاة " ثم ذكـــر مكـــارم الأخلاق فى المرتبة الرابعة من البر فقال تعالى :" والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والـــصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون " وقد تناولنا ذلك فى رسالة البر إن شاء الله تعالى ، فالتقدم فى العلم الدينى والنهضة والتجديد فيه يكون بالعمل بما فيه وليس بتحريفه أو الزيادة أو النقص منه .

هذا وإن كان العلم الدينى لا يقبل الزيادة أو النقص إلا أنه يقبل التسهيل والشرح والبيـــان والإيضاح بما يليق بكل زمان ومكان دون تحريف ولا تبديل .

وأما علوم الدنيا التى أصلها جميعاً المنطق فإنها قابلة للتجديد والزيادة والـــنقص كـــل يـــوم والزيادة والنقص لأنها نتاج أفكار الناس جميعاً ومصدرها عقولهم ، ولا ينبغى الاقتـــصار منـــه على ما قاله القدماء بل هو فى تطور مستمر ، وهو فى رابع مراحله الآن وهو منطق المـــادة ، فالواجب علينا أن نقفز إليه وإلى ما بعده إن استطعنا لا أن نحصر أنفسنا فى المنطق الأرســـطي الذى هي المرحلة الثانية من مراحل المنطق وقد عفا عليه الزمن ، فلم يعد الكون محتاجـــاً الى الجواهر والأعراض وانما هو محتاج إلى المادة والطاقة وخصائص كل منهما .

Scanné avec CamScanner

واعلم أنه ما من حضارة سادت وقادت العالمين عبر تاريخ الكون كله إلا بواسطة علم يكون عندها ولا يوجد عند غيرها .

ثم قال :

وهــو النــور والبيــان الــذى قــد   كـــان منـــه لآدم الأسمـــاء

العلم هو النور والبيان الذى امتن الله به على الآدميين بتعليمهم إياه قــال تعــالى :" خلــق الإنسان علمه البيان " فأول من تعلم من الآدميين هو أبونا آدم وأول من علم هو الله سبحانه وتعالى وكفى .

ولا ينبغى أن يسمى آدمياً إلا من اتبع سنة أبيه آدم عليه السلام والتحق بمنهج ربه ســبحانه وتعالى .

ثم قال :

إنمـــا العلـــم منـــهج مـــستقيم   ســـلكت فيـــه قبلنـــا الأنبيـــاء

يكفى العلم فخراً أنه ما بعث الله من نبي إلا وكان عالماً بالعلمين معاً ، ونــصوص الكتــاب والسنة شاهدة بذلك قال تعالى :" وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة " فالكتاب هو العلم الدينى والحكمة هى وضع الشيء فى موضعه فالأنبياء جميعاً كــانوا علــى بصيرة وعلم بأمور دينهم ودنياهم وقال تعالى لنوح عليه السلام :" واصنع الفلك " وقال فى داوود :" وعلمنه صنعة لبوس " وقال للأنبياء جميعاً :" يا أيها الرسل كلوا من الطيبــات واعملوا صالحاً " وكان آدم عليه السلام فلاحاً وإدريس خياطاً وسليمان ملكاً ونوحاً نجــاراً وملاحاً وداود حداداً وابراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام رعاة وأدار يوسف عليه السلام الدنيا كلها وأخرجها من المجاعة إلى الرغد والسعة بحكمته وعلمه بالزراعة .

Scanné avec CamScanner

وقد يظن كثير من الناس أن الأنبياء عليهم السلام كانوا لا يعرفون شيئاً من الدنيا وإنما يعبدون الله فقط ليلاً ونهاراً ولا يخالطون الناس ولا يحبون من الدنيا شيئاً وإنما يكرهونها ويدعون إلى التخلف والانحطاط وذلك خطأ كبير والله ورسله منه براء .

وقد عاب المشركون النبى محمداً عليه السلام بمخالطته للناس وأخذه حظه من الحياة الدنيا قال تعالى :" وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا " فرد الله عليهم سبحانه بقوله تعالى :" وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق " فأثبت الله تعالى لأنبيائه جميعاً التمدن ومخالطة الناس لأن ذلك لا ينافى الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى :

ثم قال :

وهو قسمان علم نقل وعقل منه كسب وبعضه ايحاء
هو إرث وليس حكراً لقوم وبقدر التعلم الأنصباء

تقدم شرح البيت الأول وإنما أعاده ليرتب عليه ما بعده فالعلم بقسميه معاً تراث للآدمية جميعاً فالعلوم العقلية تتطور وتتجدد باستمرار ويبنى فيها اللاحق على خطى السابق مع البحث والتفتيش والابتكار ، ولا ينبغى الاقتصار منه على ما قاله الأوائل وإنما نستعين بما قالوه لانتاج الجديد ، ولذلك لم أولع أنا العبد الفقير بتعليم المنطق الارسطى لأن الزمن عفى عليه وإن كان صحيحاً فى ذاته ودقيقاً فى مبادئه إلا أن أبناء آدم جاوزوا الجواهر والأعراض بكثير وإنما هم الآن فى الطاقة والمادة اللذان يغوصون بهما أعماق المحيطات بحثاً عن الثروات ويقطعون بهما آفاق السموات بحثاً عن كواكب ينشئون فيها المستعمرات !

والعلوم الدينية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل لأنها منقولة عن الله سبحانه وتعالى وإنما تقدمها وتطورها يكون عبر العمل بما جاءت به كما تقدم .

Scanné avec CamScanner

وقد رأيت بأم عينى من يدعوا إلى تجديد علم النحو العربى وهذا طريف جداً فقلت له إن المرفوعات سبعة والمنصوبات خمسة عشر والمجرورات ثلاثة والمجزوم واحد إن زيد فيها واحد أو نقص منها لم تكن اللغة عربية ! وإنما يجدد علوم العقل لا علوم النقل .

واعلم أن العلم بقسميه ميراث للآدمية جميعاً وهم فيهما سواء لا يختص بشيء من ذلك طائفة بعينها وإنما ينال منهما كل الناس بقدر تعلمه فقط قال عليه السلام :" إنما العلم بالتعلم " .

وقد نهى الله سبحانه عن كتم العلم مطلقاً فقال :" وإذ أخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس ما يشترون "

وذم الله تعالى اليهود بكتمهم للتوراة فقال تعالى :" قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا " ونهى النبى عليه الصلاة والسلام عن كتم العلم فقال :" من كتم علماً عن أهله ألجم بلجام من نار يوم القيامة " فالناس سواسية فى العلم لا يجوز كتمه عن أحد منهم لأنه ميراث الآدمية كلها .

وقد أخطأ فى ذلك طوائف من المسلمين سنة وشيعة فذهب بعض أهل السنة ممن يسمون بالصوفية إلى أن مشايخهم يعلمون علماً لا يعلمه إلا المشايخ فقط وسموه "علم الحقيقة " وهو خطأ فاحش لأن علم الحقيقة وإن كان موجوداً إلا أنه لا يحصل إلا بتطبيق الشريعة ، وقد سول الشيطان لبعض أولئك الناس أن يسقطوا عن انفسهم التكاليف بدعوى علم الحقيقة قال تعالى مخاطباً نبيه عليه السلام :" واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " فلو كانت التكاليف تسقط عن أحد لصلاحه وتقواه لسقطت عن النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام وقد أمره الله بعبادته حتى يأتيه اليقين ، وإنما تسقط التكاليف عن اولئك المزعومين بدنوهم من الشيطان أكثر فأكثر . ولا ينافى ذلك أن يتفوق من ازدان بالتقوى والصلاح من المشايخ على سائر الناس بتقواه وورعه ويفتح الله عليه بذلك من العلم بقدر تقواه قال تعالى :" واتقوا الله ويعلمكم الله " .

Scanné avec CamScanner

وذهبت الشيعة إلى أن العلم منه ما هو محصور فى طائفة معينة من النـــاس سمـــوهم الأئمـــة المعصومين وادعوا أن لهم علماً لا يعلمه غيرهم وهو خطأ كبير وافتراء وزور وبهتـــان ، وآل البيت الشرفاء عليهم السلام براء من كل ذلك .

ثم قال :

لا ترى النـــاس حققـــوا أي شـــيء دون علـــم هـــب أنهـــم علمـــاء

وإذا كان العلم مفتاح كل خير فى الدنيا والآخرة وبه يتحقق كل نفع وبه سادت كـــل أمـــة وقادت عبر التاريخ فإن العلم الذى لا يعمل به أسوأ من الجهل لأنه يتحول إلى ثقل وأعبـــاء يتعب أربابها بحملها إلا أنهم لا يستفيدون بشيء منها ، والعالم الإسلامى اليوم قريب من ذلك وما ذلك إلا بتركهم لعلوم العقل وعدم فهمهم لعلوم النقل كما ينبغى قال تعالى :" مثل الذين حملوا التوارة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين ". هذه الآية الكريمة نزلت فى اليهود إلا أنها اليوم صادقة علـــى أمة الإسلام .

ثم قال :

لـــيس فى العلـــم مـــا يـــذم ولكـــن قـــد يـــسيء اتجاهـــه الجهـــلاء

العلم بشتى أنواعه نافع دائماً وأبداً لا يضر ولا يؤذى إلا إذا سلك به المفسدون منحى آخـــر غير سبيل العلم وخير مثال شاهد على ذلك هى تلك السموم الفتاكة التى صنعتها الطائفـــة المفسدة فى الأرض بغير حق وسمتها بالسلاح النووى والعلم برئ من ذلك .

وقد بدأ البحث فى ذلك العلم من قديم الزمان وتناوله المسلمون الفلاسفة والمتكلمون تحـــت نظرية " الجزء الذى لا يتجزأ" ولابن حزم رحمه الله فى ذلك كلام نفيس يشهد بعلو كعبـــه فى سائر العلوم .

Scanné avec CamScanner

هذا وقد ذم بعض العلماء من المسلمين علمي المنطق والكلام وهم مخطئون فى ذلك ، فالمنطق هو أصل علوم العقل كلها وهو أعم من مجردكلمات تدور بالذهن فى حلقة مفرغة .

وعلم الكلام فن عظيم لجأ إليه المسلمون كحصن حصين للدفاع عن دينهم وجعلوه سداً منيعاً أمام شبهات أعداء الدين ، فعلم المنطق المعاصر وهو منطق المادة ضروري لنا لنلحق بالعالم وعلم الكلام ضروري لنا لندافع عن ديننا .

إلا أن فائدة علم الكلام هو الرد على الشبه والدفاع عن الإسلام فقط ، ويخطئ فى ذلك من يريد أن يجعلها منطلقاً للدعوة ومن استعملها كذلك فقد أساء فهمها ، وإنما أنشأها أربابها للدفاع عن الدين لا للدعوة إليها وللأشاعرة فى ذلك جهد عظيم عبر التاريخ لا يستهان به .

ثم قال :

وكفى العلم زينة وجمالاً أن لله أهله شهداء

أثبت الله تعالى لنفسه علماً فقال :" ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء " إلا أن علمه سبحانه وتعالى مخالف لسائر العلوم لأسباب كثيرة أهمها ثلاثة أولها : أن علمه تعالى لم يسبق بجهل وثانيها : أن علمه سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى آلة ولا أدوات وثالثها : أن علمه سبحانه وتعالى هو الذى تسبب فى كل شيء بخلاف علوم المخلوقين فهى مسبوقة بجهل قال تعالى :" والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً " والحواس ضرورية لعلوم المخلوقات فلا يتعلم من لا يرى ولا يسمع ولا يبصر وعلوم المخلوقات مأخوذة ومسببة عن غيرها .

كما أثبت الله تعالى لنبيه عليه السلام علماً فقال :" وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً " ودعا الله تعالى ورسوله عليه السلام الناس جميعاً إلى التعلم والتعليم فقال تعالى :" فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون " وقال عليه السلام :" مثل ما بعثنى الله به من الهدى والنور كمثل الغيث الكثير " وقد تناولنا شرح ذلك الحديث وغيره من مبادئ العلم وأنواعه وآدبه وفوائده فى منظومتنا اللامية القيمة التى سميناها " نيل

Scanné avec CamScanner

العلوم " وهى صغيرة الحجم إلا أنها غزيرة العلم لا يستغنى عنها فى بابها ولله الحمد كـــثيراً . هذا ويكفى العلم فخراً وشرفاً أن العلماء هم شهداء الله تعالى الذين يشهدون له بالوحدانيـــة كما أنهم ورثة الأنبياء والمرسلين قال تعالى :" شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم " وقال عليه السلام :"العلماء ورثة الأنبياء والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر " .

ثم قال :

وكفـــى الجهـــل ســـبة وانحطاطـــاً أن إبلـــــيس جنـــــده الجهـــــلاء

نهى الله سبحانه وتعالى عن الجهل وعابه وذم أهله وحظـــر مـــن اتبـــاع الجـــاهلين قـــال سبحانه :" فلا تكونن من الجاهلين " وقال تعالى :" خذ العفو وامر بالعرف وأعـــرض عـــن الجاهلين " ونهى النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن الجهل فقال :" يا ابن مسعود كن عالماً أو متعلماً أو محباً أو سامعاً ولا تكن خامساً فتهلك " وكفى الجهل عيباً وعاراً أن الطائفة المعتدية المفسدة فى الأرض لم يوصلها إلى ما وصلت إليه من البغى والعتـــو والإفـــساد فى الأرض إلا جهلها بالله تعالى وجهلها بالهدف من وجودها فى الكون أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون .

ثم قال :

أنفع العلـــم مـــا بـــه عبـــد اللـــــــه ويبقـــــى تعليمـــــه والهنـــــاء

العلم أنواع كثيرة إلا أن أرفعه وأحبه إلى الله هو العلم الذى يثمر العمل وخير العمل عبـــادة الله سبحانه وتعالى ولا ينفع العلم إلا بالعمل به قال تعالى :" إنما يخشى الله من عباده العلمـــاء " وخير العلم ما تعلمه الناس جميعاً وأنفع العلم ما كان سبيله سهلاً قال عليه الصلاة والسلام :" من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة " اللهم علمنا مـــا ينفعنـــا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما والحمد لله رب العالمين " .

Scanné avec CamScanner

الباب التاسع

فى جمال المال

زينة العلم وجماله المال ! والعلم علمان علم دين وزينته التقوى إلا أن المال مساعد وعون مهم على تحصيله ، وعلم دنيا وزينته المال قال تعالى :" المال والبنون زينة الحياة الدنيا " والمال من نصيب أبناء آدم فقط لا يعنى به من الكائنات غيرهم ، ولم يمتز أبناء آدم على سائر المخلوقات إلا بالعلم فحياتهم حياة علم وزينة تلك الحياة المال ، وما زان العلم فى الغرب إلا المال وما شانه فى الشرق إلا الفقر .

[والمال هو كل ما يملكه ابن آدم ويحبه ويتنازل عنه] وهو كثير جداً جمع الله سبحانه أنفع أنواعه فى آية الزينة فقال سبحانه :" زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب " فأخبر سبحانه أن الحياة الدنيا متاع وخير متاعه و أنفعه خمس :

أولها : النسا ء والبنون وهى الأسرة الكريمة فخير ما يقتنيه الناس فى حياتهم ويتزينون به هى جمال الأسرة من الزوجات الصالحات والأولاد الطيبين بنين وبنات ، والرجل والمرأة كلاهما متاع وزينة وجمال للآخر إذ لا يستغنيان عن بعضهما ، ونتاج ارتباطهما هو الذرية الطيبة ، إلا أن حب الرجال للناس أشد واشتياق النساء للرجال أكثر .

ثانيهما : المال بشتى صوره وأنواعه والتى أصلها وأساسها جميعاً الذهب والفضة ، فخير ما يقتنيه الناس بعد الأسر الكريمة هى المال الحلال الطيب الكثير المعبر عنه بالقناطير المقنطرة ، والذهب والفضة جوهران كريمان وضعهما الخالق فى الكون ليتوصل الناس عبرهما إلى ما في يد الآخرين عن تراض منهم .

Scanné avec CamScanner

ثالثها : الخيل المسومة وهى عبارة عن السلطة والدولة حيث كانت الملوك من قبل تقاد أمامها تلك الخيول المسومة المزينة ومازالت بعض الدول كذلك إلى يومنا هذا فخير ما يقتنيه الناس بعد الأسرة والمال هو الحكم وتميل نحوه كل النفوس فهو مال .

ورابعها : الأنعام وهى الثروة الحيوانية فرابع شيء يقتنيه الناس فى الحياة الدنيا هى الحيوانات بشتى أنواعها وهى ثروة لا يستغنى عنها لو أحسنت إدارتها ، إذ يأخذ أربابها منها كل شيء قال تعالى :" والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون "

وخامسها : الحرث وهى الثروة الزراعية فخامس شيء يقتنيه الناس فى حياتهم هى الثروة الزراعية وهى أيضاً ضرورة من ضروريات الحياة ونافعة جداً لو أحسنت ادارتها ، وقد استولت الطائفة المفسدة فى الكون على ذمام تلك الثروات الأربعة الأخيرة كلها فلم يعد فى أيدى الناس من متاع الدنيا إلا أسرهم فقط .

وما يتموله أبناء آدم أكثر من هذا بكثير إلا أن هذه الخمسة هى أمهاتها وهى انفعها وبعضها أنفع من بعض حسب الترتيب القرآنى ، فخير ما يتزين به المرء أسرته أولاً ثم ماله ثانياً إذ المال لا يشترى به الأولاد بينما الأولاد قد يجلبون المال ، وهكذا الحيوانات فقد قدمها القرآن الكريم فى الذكر على الزراعة لأنها أكثر فائدة والله أعلم .

قال الناظم :

وأرى المال زينة وجمالاً تتأتى ببذله الأهواء

زينة الحياة الدنيا عموماً والعلم خصوصاً هى المال قال تعالى : " فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم " فولا

Scanné avec CamScanner

المال لما رأيت مبانى شاهقة ولا حدائق ذات بهجة ولا سيارات فارهة ، ولولا المال لما رأيت هيئات علمية ضخمة ولا معامل للتجارب المختلفة ، وإنك لتعجب كل العجب عندما ترى الدول غير الاسلامية تخصص نصف ثرواتها أو ثلثها أو ربعها للإنفاق على العلم وأهله وعلى المراكز العلمية المختلفة وهيئات البحث والاكتشاف وتكرم أربابها وتقيم لهم احتفالات سنوية وتسنى لهم الجوائز وتفخر بهم ، بينما الدول الإسلامية نصف ثرواتها تضيع فى الحفلات الليلية والمباريات الرياضية المختلفة .

ثم قال :

إنما المال سلعة مستعارة ليس يبقى وماله أقرباء

المال والعلم والحكم هى أركان الدنيا الثلاثة إلا أنها كلها مستعارة ومسترجعة ، فما من أمة استغنت يوماً ما إلا وافتقرت بعدها وما من أمة علمت أو حكمت العالم يوماً ما إلا وجهلت واستعبدت بعد ذلك وتلك سنة الله تعالى فى العالمين ، إلا أن ذلك يحدث بعدم شكر النعمة وتصريف ذلك على غير وجهه اللائق به ، وهذه الأركان الثلاثة لا تعرف بطول مكسها عند قوم حرمة وذماماً لهم بل هي تأتى مع الشكر وحسن التدبير وتدبر مع الكفر وسوء التصرف قال تعالى :" وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين أمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير " وقال تعالى :" وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة متطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون " .

ثم قال :

وهو للناس فى الحياة قيام ما لحر بدون مال رواء

يعتبر الماء شريان الحياة المدنية بين الناس ، إذ بدونه لا يتأتى شيء من المعاملات المختلفة ، فلولا المال لما علّم معلم تلميذا ولولا المال لما داوى طبيب جريحاً ولا مريضاً ولولا المال لما بنى الأجير بناء ولا باع التاجر متاعاً قال تعالى : " ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً " ثم إن الإنسان الذى لا مال له لا يعتد به فى دنيا الناس أبداً قال عليه

الصلاة و السلام :" لأن يحتطب أحدكم حطباً وييعه خير له من أن يسأل الناس أعطـــوه أم منعوه " .

ثم قال :

إنمـــا المـــال طعمـــة ثم يبقـــى زينـــة المـــال بذلـــه والـــسخاء
يتحلـــى ببذلـــه خـــيرة النـــا س ويـــشقى بجمعـــه الـــبخلاء

المال نعمة عظيمة من الله سبحانه وتعالى لأبناء آدم، فسائر المخلوقات تتقاتل على أتفه شيء وتتنازع عليه من طعام أو مسكن أو منكح إذ لا مال لها تتبادلها فيما بينها للوصول إلى ما في يد بعضها الآخر بتراض منها ، بخلاف أبناء آدم فإن الله سبحانه أعطاهم ما يكفيهم شر الوقوع فى ذلك كله وهو المال ، ولذلك أوجب الله الحفاظ عليه واعتبره قياماً للحياة ووديعة عند الناس ، وقد أمر الشارع بالحفاظ على المال وعدم تضييعه كما أمـــر بـــإخراج حقـــوق الفقراء والمساكين منه ، وحدَّ عقوبة رادعة لمن اعتدى على المال لأنه للناس جميعاً ، هذا ويزين المال أكل صاحبه واستمتاعه به فيما ينفع ، ويشينه خزنه واستعماله فيما يضره قـــال عليـــه الصلاة والسلام :" ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليـــت أو أنفقـــت فأبقيت " وقد أثنى القرآن الكريم على الذين يتولون توزيع تلك النعمة على العباد ولا يمنعونه بغير حق قال تعالى :" سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعـــدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء الضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن النـــاس والله يحـــب المحسنين " .

كما ذم القرآن الكريم أولئك الذين يحولون بين الناس وبين تلك النعمة العظيمة فقال سبحانه :" الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله غنى حميد " .

واعلم أن أسعد الناس بماله هو من ينفق منه على نفسه أولاً وعلى أهله ثانيـــاً وعلـــى المحتاجين ثالثاً وأشقاهم به هو من يبخل بماله على نفسه أو أهله أو المحتاجين قال تعالى :" ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " وقال تعالى " ومن يبخل فإنما يبخل علـــى نفـــسه "

Scanné avec CamScanner

وقال تعالى " فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى " .

هذا ويتمتع الجواد بماله ويأكل منه ويشرب ويصل الى مراده من متاع الدنيا ، وأما البخيل فيخزنه ويجمعه إلى أن يموت ويتركه لمن يصرفونه فى مالم يجمع له ويتحمل هو تبعات ذلك يوم القيامة قال الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه :" إذا مات ابن آدم أصيب بمصيبتين لم يصب بهما أحد قبله أولاهما أنه يترك ماله كله وثانيهما أنه يسأل عن ماله كله " ،ولا يعنى ذلك أن يصرف الإنسان ماله فيما لا يحتاج إليه مما لا قيمة له فان ذلك سفه وتبذير قال سبحانه :" ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله قياما " وقال تعالى :" وآت ذا القربى حقه والمسكين ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا " فتبذير المال وصرفه في مالا يحتاج إليه كفر بنعمة الخالق سبحانه ، وإنما يقصد بالكرم والجود أن يكون المرء وسطاً فى صرف المال كما قال تعالى :" ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً " وقد مدح الله تعالى المتوسطين فى ذلك فقال تعالى :" والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً " .

ثم قال :

وترى المال رافعاً لأناس ... هم صغار بدونه أدنياء
وترى الفقر واضعاً من أناس ... هم كبار لو أنهم أغنياء

للمال سلطته ومكانته فى نفوس الناس جميعاً إذ هو زينة الحياة الدنيا والناس يحبون كل جميل ، والدنيا دار ابتلاء ومحن فترى انساناً حقيراً لا دين له ولا أمانة عنده ولا علم ولا ذكاء ولا مروءة ولا شجاعة ولا أى خلق جميل إلا أنه بماله يصول ويجول وبه يفعل ما يقول ، وترى إنساناً آخر ذا خلق ودين ومروءة وشجاعة وكل خلق كريم إلا أنه لا مال له فلا يسمع

ما يقول ولا حول له ولا قوة وخاصة إذا كان المجتمع مجتمعاً مادياً صرفاً لئيماً يقيس النـــاس بذات يدهم لا بذواتهم .

واعلم أن الدولة إنسان كامل وروحه شعبه وزينته ماله ! فكما يرفع المال ويـــضع فى الناس فكذلك يفعل بالدول ، فترى دولة حقيرة صغيرة لا تساوى شيئاً في دينها ولا فى علمها ولا فى عدد سكانها إلا أنها مليئة بالثروات والخيرات التى تسيل وراءها لعاب العالمين فتـــبرق وترعد وتتوعد وتوعد ، وترى دولة أخرى كبيرة مليئة بالدين ومكارم الأخـــلاق والمـــروءة والعدد والعدد إلا أنها خالية الوفاض بادية الإنفاض فلا وزن لها حتى فى نفوس أبنائها فـــضلاً عن الآخرين ، ولا كلام لها ولا قرار وإنما دورها فى الدنيا أن تسمع وتفهم وتطيع !

ثم قال :

إنمـــا النـــاس بـــالنفوس ولكـــن هـــم رهـــان بمـــالهم أقويـــاء

قيمة الناس فى الحياة بأعمالهم وآدابهم لا بأموالهم ومآدبهم ، وإنما يقاس الناس بالمال فى المجتمعات الخالية من الايمان والتى ترى أن الدنيا هى كل شيء ، ومع كون الناس لا يقاسون بالمال إلا أن الغنى أفضل من الفقر فقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن نفسه بـــالغنى ووصـــف عباده بالفقر قال تعالى :" يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد " وقـــال تعالى :" وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما نتزله إلا بقدر معلوم " وقد استعاذ الـــنبى عليـــه الصلاة والسلام من الفقر فقال :"اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر وغلبـــة الدين وقهر الرجال "

فرغم كون الناس بالنفوس إلا أن الدنيا بالفلوس ! والقوة دائمة للأغنياء فنـــسأل الله سبحانه وتعالى أن يغنينا وأحبابنا غنى لا يطغينا وأن يجعل المال فى أيدينا لا فى قلوبنا بمنه وفضله آمين .

Scanné avec CamScanner

ثم قال :

وتـــرى الكـــل للغـــني محبـــاً دون نيـــل مـــن مالـــه هـــم رعـــاء

وتراهم مـــع الفقـــير علـــى العكـــ ـــس وإن هـــان هـــم لـــه أعـــداء

ورغم كل ما تقدم من جمال المال وزينته إلا أنه أيضاً فتنة فقل ما تـــرى مـــشكلة فى الأسرة أو فى المجتمع أو فى الدول أو فى العالم إلا ووراءها المال ، فهو نعمة ونقمة وسلاح ذو حدين قال تعالى :" إنما أموالكم وأولادكم فتنة " وفتنة المال هى أم الفتن كلها فهى التى تقطع من أجلها الأرحام وتزهق النفوس وتغزى الدول وتستعبد الأمم قديماً وحديثاً .

وصور فتنة المال لا تعد ولا تحصى ومن أغربها وأعجبها أن الغني يحبه كل النـــاس وإن حسدوه فهو أحب إليهم من الفقير لأن المال يكسوه بشيء من زينته وجماله ، ويحب النـــاس الغني وإن لم ينفعهم بشيء من ماله وإن لم يطمعوا فى ذلك ، فإذا مر بهم نظـــروا إليـــه بعـــين الإجلال وإذا سلم عليهم أجابوه بصوت مرتفع وإذا دعاهم أجابوه سريعاً وإذا أمرهم ألفيتهم تحت الأقدام وما كل ذلك إلا لماله الذى افتتنوا به قال تعالى فى أغنى رجل عرفه التاريخ وهو قارون :" فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم " وكان قارون هذا يهودياً عاصر النبى موسى عليه السلام فنـــهاه عن الأشر والبطر والخيلاء بماله قال تعالى :" إن قارون كان من قوم موسى فبغـــى علـــيهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفـــرح إن الله لا يحب الفرحين " وإذا كانت نفوس أبناء الدنيا تميل إلى المال وصاحبه وتعبده من أجل ماله فإن المؤمنين يخاطبونه بقوله تعالى :" وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الـــدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين " وما زالت اليهود من ذلك التاريخ وإلى يومنا هذا أغنى الناس وأحبهم للمال بل المال إلههم .

وإذا كان حال الناس مع الغنى هكذا فإنهم مع الفقير على العكس لخلوه من زينة الحياة الدنيا فهم لا يحبونه وإن تواضع لهم وألان لهم الكلام بل يرونه عبئاً ثقيلاً فإذا مر بهم لم ينظروا

Scanné avec CamScanner

إليه وإذا سلم عليه أجابوه على مضض وإذا دعاهم اعتذروا ، ولا يفكر فى أن يأمرهم بشيء إذ لا كلمة له ما دام فقيراً .

ثم قال :

أنفـــع المـــال فى الحيـــاة حـــلال لـــيس إرثـــاً ولم يـــشبه ربـــاء

وإذا كان المال فى ذاته زينة لصاحبه الغني فإن مما يزينه أكثر فأكثر أن يكون متواضعاً وأن يكون سخياً يقاسم المحتاجين خيراته التى استخلفه الله عليها ثم إن المال أنواع فأنفع المال لـــصاحبه وأكثرها بركة هو المال الحلال الذى اكتسب بكد اليمين وعرق الجبين ، ومن المال ما يـــصل إلى الإنسان بغير تسبب منه كالإرث والهدايا إلا أن صاحبه يتساهل فى إنفاقه إذ لا يدرى كيـــف تم اكتسابه قال تعالى :" وتأكلون التراث أكلاً لما " وأما من اكتسب المال بنفسه وتعب فى تحصيله فلا يتهاون فيه أبداً وإن من أنفع المال المال الذى أنفق فى سبيل الله دون أن يشوبه أو يشينه ريـــاء ولا افتخار وهو المال الذى يضاعفه الله لصاحبه فى الدنيا وفى الآخرة قال تعالى :" من ذا الـــذي يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له " أى فى الدنيا " وله أجر كريم " أى فى الآخرة .

ثم قال :

وأحـــب الأنـــاس للمـــال طـــرا وبـــه تـــشترين هـــن النـــساء

ما من آدمي إلا وهو يحب المال ! وإن تظاهر أنه لا يحبه لأنه لا يصل إلى مراده فى دنيا الناس إلا بالمال وكل إنسان يحب الوصول إلى مراده قال تعالى :" وتحبون المال حباً جماً " هذا وإذا كان الناس جميعاً يحبون المال فإنهم متفاوتون فى ذلك فأحب الأمم والشعوب للمال هـــم اليهود وعلى شاكلتهم كثير من الناس ومن القبائل منها قبيلة عندنا اسمها فى الكتب القديمة " الزغرانة " هم أحب الناس للمال فى بلادنا وأدرى الناس بطرق تحصيله ، ثم إن أحب الأفراد جميعاً للمال هن النساء لدرجة أنهن تبعن أنفسهن به ، فترى رجلاً كريماً حيياً مؤدبـــاً يخطـــب امرأة إلا أنه فقير فيجد أمامه سداً منيعاً كسد يأجوج ومأجوج من العقبات التى بناها الفقـــر والخلو من زينة الحياة الدنيا أمامه ، ويأتى رجل آخر لئيم هين على الله سيء الخلق والخلق إلا أنه غني فيفتح له أبواب الخطبة الثمانية يدخل من أيها شاء بماله التى هى زينة الحياة الدنيا .

Scanné avec CamScanner

الباب العاشر

فى جمال الملك

زينة النفس العقل وزينة العقل العلم وزينة العلم المال ومن اجتمع له هذه الثلاثة بفضل الله تعالى فهو سلطان الحياة وملك الدنيا !

فبعد ما خلق الله آدم بيديه ونفخ فيه من روحه وعلمه الأسماء كلها وأسجد له الملائكة أهبطه إلى الأرض ليكون خليفة له والنائب عنه فى تنفيذ أوامره وأحكامه . قال تعالى :" وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة " .

[والملك هو القوة الحاكمة بحسن التدبير] هو أسمى وظيفة وأعلى مرتبة يصل إليها أبناء آدم إذ الملك آمر وناهٍ يرفع ويضع ويصل إلى كل ما يريد وبكل سهولة ما دام ممكناً فى الدنيا قال تعالى :" أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيما " ثم إن الملك قسمان ملك فى الدنيا ويصل إليه كل الناس قال تعالى :" قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء " وملك فى الآخرة وهو للصالحين من عباد الله والمقربين الذين يدخلون الجنة قال تعالى فى صفات أهل الجنة وما يتمتعون به :" وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيرا "

قال الناظم :

وأرى الملك سلطة ونفوذاً ... ليس بالسهل إنه العلياء

لا يلى الملك غافل أو ضعيف ... إنما الملك أهله الحكماء

للملك دوره البالغ فى حياة الناس وله أهميته الكبرى لأنه ركن من أركان الدنيا الثلاثة التى هى العلم والمال والملك ، ولا خير فى حياة الناس بدون هذه الثلاثة فلولا العلم والمال والملك لتحول أبناء آدم إلى ذئاب يفترس بعضهم بعضا ، وإنما الذى يمنعهم من ذلك هو العلم

Scanné avec CamScanner

الذى يعرف به كل واحد منهم ما له وما عليه ، والمال الذى يتوصل به كل واحد منهم إلى ما في يد أخيه عن تراض منهما ، والملك والسلطات الحاكمة التى تعطى كل ذى حق حقه وتأخذ على يد الظالم القوي وتنتصف للمظلوم الضعيف ، وإذا كانت وظيفة الملك والسلطان القضاء والفصل بين الناس فيما تنازعوا فيه مع تولي أمورهم وحسن تدبير حياتهم فإنه منصب عظيم وعمل جبار يحتاج إلى قوة ممن يليه ونفوذ فى رأيه ونفاذ لأمره لأنه أعلى مكانة إذ هو النيابة عن الخالق فى تدبير أمور مخلوقاته قال تعالى :" يا داوود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب " ولا ينبغى أن يلى الحكم غافل أو جاهل أو ضعيف جبان لا شهامة ولا نخوة له وإلا ضيع نفسه وضاع معه شعبه .

ثم قال :

يتولى مقالد الناس كفء وعليهم يعينه الوزراء

ينبغى للذى يتولى الملك والزعامة أن يكون كفؤاً لما اشرأبّ له فإن لكل شيء فى الحياة أهله فللمال أهله وللعلم أهله وللحكم أهله قال تعالى :" وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم " فأخبر سبحانه وتعالى أن الكفاءة التى يتبوأ بموجبها الأفراد الملك ثلاثة أشياء وليس شيئاً واحداً كما توهمه هؤلاء الذين حصروه فى المال ، فإن الله سبحانه وتعالى اصطفى طالوت لا لماله وإنما لعلمه وقوة شخصيته وإن كان لم يؤت سعة من المال كما قالوا إلا أن له ما يقوت منه لأن هؤلاء إنما نفوا عنه السعة فى المال فقط ولم ينفوا عنه المال مطلقاً ، وإنما المال يكون للدولة ويديره الملك ويصرفه في جهاته الشرعية ، فالكفاءة فى الملك أن يكون الحاكم مكتفياً بذات يده وإن لم يكن غنياً ، وأن يكون عالماً بدينه ودنياه وأن يكون ممن أعطاه الله من قوة الشخصية ما يستطيع به أن يثبت كفاءته لما اسند إليه من ذلك وهو الاصطفاء المذكور فى الآية .

Scanné avec CamScanner

ثم إن الملك لا يحكم الناس منفرداً متى كان حكمه سديداً وإنما يختار من خيار الناس أمثاله من يعينونه فى ذلك ويشاورون عليه فى الأمور ويعين بعضهم بعضا وهم عماده فى الملك قال تعالى :"واجعل لي وزيراً من أهلى هارون أخى اشدد به أزري وأشركه فى أمرى " فذكر للـــوزارة ثلاثة شروط وهى أن يكون أهلاً لتولي ذلك المنصب وأن يكون مما يتقوى بـــه الحـــاكم وأن يشاركه فى جميع أموره ، ولإلئك الوزراء دورهم البالغ فى الملك إلا أن القرار يبقى بيد الملك لأنه أقواهم وأعلمهم ، وإنما يختار من آرائهم ما يراه صواباً فإن كانوا صالحين صلحوا وصلح أمر الناس جميعاً ، وان كانوا مفسدين فسدوا وأفسدوا الناس جميعاً قال عليه الصلاة والسلام :" صنفان من أمتى إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس الأمراء والفقهاء " فالأمراء هم الملوك والفقهاء هم الوزراء ويعين أحدهما الآخر ، والفقهاء يوصون بـــأمر الله وبمـــصلحة الرعية والعدل بين الناس والأمراء ينفذون ويحملون الناس على ذلك .

واعلم أن فساد الملك وصلاح الوزراء خير للناس من صلاح الملك وفساد الوزراء فإن بطانة السوء هى مصدر كل بلية ، وما ضاعت الممالك الإسلامية قديماً وحديثاً فى الأنـــدلس وغيرها إلا عبر ملوك السوء والوزراء المفسدين وخاصة إذا تقووا بالخارج على شعوبهم قال تعالى :" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ودوا ما عنتم قـــد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بيننا لكم الأيات ان كنتم تعقلون ".

ثم قال :

عمـــد الملـــك أربـــع لا تـــراه مـــستتباً بـــدونها بـــل يـــساء
وهـــى العلـــم أولاً بالـــسياسة ثم مـــال وقـــوة وذكـــاء

لكل شيء فى الحياة الدنيا أسسه وقوانينه ومبادئه وأركانه التى لابد منها فيه قال تعالى :" إن كل شيء خلقناه بقدر " ومن أخطأ ذلك المنهج فى حياته ضل سواء السبيل ، فأركـــان الملك وأعمدته التى يقوم عليها ولا يكتب له نجاح واستمرار بدونها أربعة :

Scanné avec CamScanner

أولها : العلم عموماً وبالسياسة خصوصاً [والسياسة هى الحكمة الابلغة في حسن تدبير أمـــر الرعية]

وليست السياسة بالتفنن فى إيراد الكذب بالطرق المقبولة ، فإن تلك سياســـة الطائفـــة المفسدة فى الكون بغير حق . وكان من الأنبياء من تولوا مناصب الملك قال تعالى فى نبيه داوود عليه السلام :" وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب " وقال تعالى فى آل إبـــراهيم :" فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً " وقال فى نبيه ســـليمان عليـــه السلام وهو ملك الملوك :" رب اغفرلي وهب لي ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى إنـــك أنـــت الوهاب " .

وثانيها : المال الكثير الذى يدار به شئون المملكة قال تعالى حاكياً عن نبيه سليمان وقد بعثت له ملكة سبأ بهدايا تحاول أن تشترى ذمته بها قال تعالى:" قال أتمدونني بمال فما آتنى الله خير مما آتاكم ". ومتى احتاج الملك إلى مال باع شعبه إلم يكونوا أغنياء .

وثالثها : القوة قال تعالى حاكياً عن الملكة بلقيس ووزراءها وقد استشارتهم فى أمر الحرب من عدمه قال تعالى :" قالوا نحن أولوا قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظرى مـــاذا تأمرين " وقال تعالى حاكياً عن نبيه سليمان :" فلنأتينهم بجنود لا قبـــل لهـــم بهـــا ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ".

ورابعها : الذكاء والفطنة وهى الخبرة التامة بمجالب المصالح ومدارئ المفاسد قال تعـــالى فى الملكة الحكيمة التى قادت أمة بأكملها عبر حكمتها :" قالت يا أيها الملأ إنى إلقـــي إلي كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي واتوني مسلمين قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون " فاستشارت أهلها ورأس الحكمة فى السياسة المشورة ثم قالت متوددة إلى النبى سليمان بهديتـــها " وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون " . وبذلك استطاعت أن ترد عن قومها بطش سليمان

Scanné avec CamScanner

ثم قال :

ولمـــن كـــان مالكـــاً مـــستقيماً نـــصحه مـــن رعيـــة واقتفـــاء

ولهـــم منـــه علمهـــم وغـــذاهم وكـــساهم ومـــسكن ودواء

الملك مسئولية مشتركة بين الملوك وشعوبها ، ولكل من الملك والشعب حقوق وواجبات لـــه وعليه ، فالملك على شعوبه ان كان عادلاً ولم يكن ظالماً أن ينصحوه ويخلصوا له ويعينـــوه على مهامه بكل ما يستطيعون ، ومن ذلك ذكره بالجميل وعدم تحريض الناس عليه قال عليه الصلاة والسلام :" الدين النصيحة قيل لمن قال عليه السلام " لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " فالنصح للملك واجب شرعاً بشرط أن يكون الملك عادلاً ، كما يجب للملك على الرعية طاعة أوامره وسواء وافق ذلك أهواءهم أم لا ، كأن يأمر الملك بنقل بلدة من مكانهـــا إلى مكان آخر أو ينشئ جيشاً من أناس معينين فالواجب فى ذلك ونحوه طاعة أوامره ، وله أن يكره الناس على ذلك إذهم الذين ولوه أمرهم ولا يختار لهم إلا ما يراه سداداً قال تعـــالى :" وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم " وأولي الأمر هم الملوك والأمراء لكن بشرط أن يكونوا منا كما ورد فى النص الكريم.فللملك على شعبه حق النصيحة وحق الطاعة فى غير معصية .

وللشعب على الملك خمسة أمور ضرورية وهي :

أولاً : أن يعلمهم جميعاً ويوفر لأبنائهم سبيل العلم من بناء المعاهد والجامعات المختلفة ويكون ذلك الحق وحده مجاناً إن أمكن ودليل ذلك الإجماع . وسنة الخليفة عمر رضـــى الله عنه إذ بناء المهارات هو الذى يؤدى إلى إنشاء الحضارات .

ثانياً : وبعد ذلك أربعة أمور هى الواردة فى قوله تعالى عندما أسكن آدم الجنة :" إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ".

Scanné avec CamScanner

فعلى الملك أن يوفر لشعبه ما يقوتون به ويأكلونه ولا يكون ذلك مجاناً ، وإنما لا يكون غالياً فوق طاقتهم ، وعليه أن يوفر لهم ما يلبسونه صيفاً وشتاءً ، وأن يوفر لهم ما يكفيهم من الماء للشرب والاستحمام وسقي الأراضى الزراعية والحيوانات ، وأن يوفر لهم مساكن يأوون إليها ولا يبقون فى الشوارع بلا مأوى وعليه أن يوفر لهم طرق العلاج ويبنى المستشفيات ويسهل تناول الدواء للفقراء المحتاجين ،ولا يكون أى شيء من ذلك مجاناً وإنما يأخذ ذلك مما يجبى من الشعب وثروات البلاد وأما سوى ذلك من سائر الخدمات فإنها مسئولية مشتركة بين الملوك وشعوبها وهى داخلة تحت قوله تعالى :" وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان "، وذلك كتزيين الشوارع ونظافة المجتمع وغيرها .

ثم قال :

وهو شورى متى استقام ويبقى زينة الملك عدله والرخاء

الملك فى الإسلام شورى بين الناس لا يختص به طائفة معينة من الناس لأن ذلك مدعاة لكل فساد وفتنة ، إذ يتحول الملك إلى ظلم واستبداد وانفراد باتخاذ القرار ، وإنما يختار الناس من يرونه مناسباً وكفؤاً للملك فإن أحسن أطاعوه وان أساء عزلوه ، وشواهد ذلك فى التاريخ الإسلامي كثيرة قال تعالى :" وأمرهم شورى بينهم "وتوفي النبى المصطفى عليه الصلاة والسلام ولم يستخلف أحداً وإنما ترك الأمر شورى وكذلك فعل الخلفاء الأربعة بعده .

ويبقى بعد ذلك أن الملك يعمر ويزاد جمالاً وكمالاً ومحبة فى قلوب الناس ما دام عدلاً وموفراً للناس كل ما يحتاجون إليه ، وليس العدل والرخاء من أركان الملك فقد يكون الملك ظالماً ويعمر مع ذلك، وإنما يزينه العدل والرخاء قال تعالى :" إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا "

ثم قال :

ويزين الملوك خفض جناح للرعايا مع أنهم أقوياء

Scanné avec CamScanner

وأحـــب الملـــوك للنـــاس طـــرّا ملـــك زانـــه النـــدى والـــسخاء

الملك قوة وجبروت وسلطة ودولة إلا أن الملوك يزدادون قوة بلطفهم بالـشعب لا بقهر الشعوب واستعبادها فإن ذلك لا يجلب للملك هيبة وإنما يجر له اللعنة الدائمـة سـراً وعلانية فى حياته وبعد موته ، وبقدر لطف الملك ولينه يحترمه الشعب ويبجله ويعظمه ، إلا أنه ينبغى للملوك أن لا يفرطوا فى ذلك وإنما يسلكون الطريق الوسط مع ظهور القوة والسلطة فى جميع تحركاتهم ، وأحب الملوك إلى شعوبها هو الملك الكريم الذى يجود بنداه مغزاراً ومـدراراً ومكثاراً على المحتاجين من الشعب بشرط أن يكون ذلك من جيبه فيعطى من يشاء ما يشاء ، وأما إن كان ذلك من خزانة الدولة فالواجب عليه أن يسوي بين الناس فيه لأنه مالهم جميعاً . وأنا العبد الفقير حججت سنة ثلاثين وأربعمائة من الهجرة فوجدت ملك الحرمين الـشريفين والحجاز كلها الملك الكريم عبد الله بن عبد العزيز آل سعود وكل الشعب يحبه فلم أر صغيراً ولا كبيراً ولا غنياً ولا فقيراً إلا وأثنى عليه وكانت الفيضانات قد حدثت فى ذلك العام أيام منى فمات فيها من أهل جدة المئات من الناس إلا أن الملك جبر خاطرهم فأعطى أهـل كـل ميت ما يفوت ديته إذ رأى نفسه مسئولاً عنهم جزاه الله خيراً .

Scanné avec CamScanner

الباب الحادي عشر

فى جمال الزواج

زينة العقل والعلم والمال جميعاً الملك ! ومن ملك استمتع وخير ما يستمتع به الزواج الـــذى هو سنة الحياة الضامنة لبقاء الكائنات السفلية قال عليه السلام :" الدنيا متاع وخير متاعهـــا الزوجة الصالحة " [والزواج هو عقد محبة ووفاء فى مشروع حياة مشتركة بين كفؤين لبناء مستقبل أفضل وتكوين مجتمع سليم] .

وقد ذكرنا فيما سبق متاع ولذات الحياة الدنيا وحصرها فى ست وخيرها جميعاً متعـــة الزواج إذ هي اللذة والمتعة المشتركة بين الأحباب ! فبينما سائر ملذات الدنيا تتم على انفراد فالإنسان ينام وحده ويأكل وحده إذ وحده الذى يشعر بما نام وبما أكل ولا يشعر بذلك غيره أبداً إلا أنه لا يجامع وحده وإنما يقاسم تلك اللذة والمتعة أحبابه سواء بسواء الذين هم أعـــز الناس لديه .

ومن ملك فى الدنيا استمتع بحياته ولا يجد شيئاً يستمتع به ويريح نفسه ويرفه عن قلبه كالزواج أبداً قال تعالى :" ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات للعالمين " وقال تعالى :" ومن كل شيء خلقنا زوجـــين لعلكم تذكرون " فالسماء زوج للأرض إذ بدونه لا تنبت الأرض والشمس زوج للقمـــر إذ بدونها لا ينير القمر ! ولولا التزاوج بين المخلوقات لفنيت الخلائق من على ظهر الأرض .

وأنواع الزواج تختلف بالنسبة للكائنات فمن الكائنات ما خلقه الله مثنى مثنى ذكـــراً وأنثى يولدان معاً وينشآن معاً ويتناسلان بعد ذلك وجل الطيور كذلك وهو أجمـــل أنـــواع الزواج حيث لا ترى خلافاً أبداً بين طائرين وإنما يتقاسمان كل أدوار الحياة تقاسماً فطريـــاً لا وكس فيه ولا شطط وكان أبونا آدم عليه السلام إثر هبوطه على الأرض كذلك ، ثم ولد لهما هو وحواء الكثير والكثير من البنين والبنات فكان آدم عليه السلام يخالف بـــين البطـــون فى

Scanné avec CamScanner

التزاوج إذ كان لا يولد لهما إلا التوأم فذكر هذا البطن لأنثى ذلك البطن وهكذا وكانت تلك مرحلة ضرورية ثم تكاثر الناس بعد ذلك فتباعدوا فى الزواج.

ومن الكائنات ما يولد فرادى ثم تتلاقى أفراده لتتزاوج فور التلاقى وإثر التعارف على بعضها طوعاً أو كرهاً وجل الحيوانات غير الآدميين كذلك ، والغريب أن لكل الكائنات حركات معينة تحدثها قبل الجماع أو حالة الجماع ، فالإبل الفحل يرمى بلسانه الذى يتساقط منه فقاقع ويصوت تصويتاً معيناً قبل الجماع والعجل والكبش والتيس تمد أعناقها على طرفى الخروف والبقرة والعنزة وتصوت تصويتاً معيناً لتولي منها الإناث مدبرة أولاً ثم تتبول ثانياً فيشم الذكور أبوالها لتعرف هل هى صالحة للتلقيح أم لا ، والحمام يرقص المذكر منه أمام أنثاه وينفخ صدره ، ويفتح أنثى الحمار فاه عند الجماع مبدية أسنانها ، وأما الديك فيدور حول نفسه ويمد جناحه ، والخيول تشم أنوف بعضها ثم تصوت تصويتاً معيناً مختلفاً عن الصهيل ، وأما القطط فإنها تتباكى بكاء الأطفال قال تعالى :" ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى " ولم أجد لتلك الحركات تفسيراً معيناً ولبعض الناس فى تفسير ذلك طرف مضحكة نذكرها فى كتاب الحيوان إن شاء الله تعالى ، وأرى أن ذلك إما لإثارة الشهوة أو لاختبار قابلية التلقيح إذ سائر الحيوانات لا تتزاوج غالباً إلا فى فترات معينة بخلاف أبناء آدم فإنهم لا يملون التزاوج ما داموا شباباً قال تعالى :" نسائكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم " فأباح سبحانه التزاوج لأبناء آدم فى كل وقت وحين واستثنى من ذلك أيام المحيض فقط .

والتقديم للأنفس هى الحركات التى تقوم بها سائر الكائنات بخلاف أبناء آدم الذين أعطوا ميزة النطق والتعبير عما فى النفس ولذلك امتن الله عليهم بالبيان فقال :" خلق الإنسان علمه البيان " .

Scanné avec CamScanner

وإذا كان التزاوج يتم بين سائر الكائنات إما طوعاً أو كرهاً فإن أبناء آدم يختلفون عن الكائنات فى ذلك فالزواج بينهم مبني على أسس ومبادئ من الاحترام المتبـــادل فى القبـــول والرضى بين المتزاوجين على شرع الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله.وسلم .

قال الناظم :

إنمـــا العقـــد فى الـــزواج بنـــاء شـــــيدته محبـــــة وإخـــــاء
فـــإذا مـــا بنـــوا بنـــاءاً مـــشيداً ســـــكنته الأبـــــاء والأبنـــــاء

الزواج فى الإسلام مشروع مبارك وهو سنة الأنبياء جميعاً وهو بناء حسي ومعنوي فمن حيث الحسى هو بناء للأسرة التى هى اللبنة الأولى فى المجتمع والأمم وهى سنة الحيـــاة الـــتى أمرت بها جميع الأديان السماوية قال تعالى :" ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً وجعلنا لهم أزواجاً وذرية " وعاب الله سبحانه وتعالى على النصارى ابتداعهم فى دينه مالم يأذن به وهو الرهبانية قال تعالى :" ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم " وقال عليـــه الـــسلام :" لا رهبانيـــة فى الإسلام ومن رغب عن سنتى فليس مني " .

وأول من تزوج هو أبونا آدم حيث أسكنه الله هو وعروسه الجنة قال تعالى :" ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما " فالزواج هو أول لبنـــة فى صـــرح الإنسانية العالية التى بدأت بالأسرة فالعائلة فالقبيلة فالبلدة فالدولة فالقارة فالـــدنيا بأســـرها وذلك عبر تاريخ الإنسانية العظيمة قال تعالى :" يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم مـــن نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء " .

وأما من حيث المعنى فالزواج بناء للقيم والمبادئ السامية التى فطر الله الآدمين عليهـــا حيث يربى الأباء والأمهات الأولاد على مكارم الأخلاق التى لا صلاح للعالمين إلا بها ، ويبقى أن ذلك البناء بشقيه الحسي والمعنوي ينشؤه الأباء والأمهات معاً وأساسه المحبـــة الـــصادقة وروحه الإخاء والمودة ! فإذا ما أتقنوه واعتنوا به سكنوه هم وأبناؤهم وأحفادهم جميعاً وعبروا مسيرة الحياة الدنيا بسلام .

Scanné avec CamScanner

ثم قال :

إنما البيت مزرع فيه يزهو بيد الأهل روضة غناء

فإذا طاب أصلها فهى طيب وإذا ساء أصلها فغثاء

البيت الزوجية فى الحياة كمزرعة والعمال فيها هم أهل البيت جميعاً ، فإذا ما كان أرض الأبوين طيبة وعملا بإخلاص وصدق أحدهما الآخر رزقهما الله ذرية طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها من الأبناء والأحفاد الصالحين والأتقياء والأمناء والأوفياء ، وبقدر ما يعتنى أهل المزرعة بها تزداد جمالاً وزينة وبهاء كل يوم !

وأما إذا لم تكن أرض الأبوين طيبة ولم يعملا بإخلاص ولم يقف أحدهما بجنب الآخر فإن المزرعة تكون كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار فينتجون أولاداً وأحفاداً سيئين لهما وللمجتمع قال تعالى :" والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون " .

ثم قال :

وأرى العقد فى الزواج ارتباطاً بين كفؤين يقتضيه الوفاء

يعتبر عقد الزواج فى الإسلام عقد ومحبة ومودة ووفاء بين كفؤين لإنشاء مجتمع سليم وبناء حياة سعيدة ، وليس الزواج كما صوره كثير من الفقهاء القدامى بأنه عقد معاوضة يشترى بموجبه الزوج بضع المرأة كسلعة يستمتع بها ، فالزواج أشرف من ذلك بكثير قال تعالى :" وآتوا النساء صدقاتهن نحلة " فالصداق نحلة وهدية وإكرام من الرجل للمرأة وليس بيعاً وشراءاً وقال عليه السلام :" استحللتم فروجهن بكلمة الله " وكلمة الله هى العهد والميثاق الذى قطعه الزوج على نفسه عند الارتباط بالزوجة . قال تعالى :" وأخذنا منكم ميثاقاً غليظاً " وأقوى ما يوضح كون الزواج نعمة مشتركة وليس بيعاً ولا شراءاً هو أن الاستمتاع مشترك بين الطرفين فبقدر ما يستمتع الرجل بالأنثى فإنها أيضاً كذلك تستمتع به ، ثم إن الأولاد لهما معاً وإن نسبوا إلى الأباء فى الإسلام ، فالزواج عقد ارتباط وليس عقد

معاوضة ، ثم إن الاسلام حريص على أن يكون الزواج بين كفـؤين متناسـبين مـتلائمين متوائمين متفقين فى الهدف ، والكفاءة فى الحقيقة هى الدين والخلق وليس بتلـك العـصبيات الجاهلية التى نهى الإسلام عنها من قرشية أو عربية أو أعجمية أو مال أو جاة فـإن الإسـلام أذاب ذلك بتسويته بين بنى البشر جميعاً قال تعالى :" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " قال عليه السلام :" كلكـم لآدم وآدم من تراب " وقال عليه السلام فى اختيار الزوج الصالح :" إذا أتاكم من ترضـون دينه وخلقه فزوجوه فإن لم تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير " هذا فى جانب الرجـل فنظر المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى دين الرجال وأخلاقهم لا إلى أموالهم أو جمـالهم أو أنسابهم إذ كل ذلك لا قيمة له مالم يكن الرجال أمناء وأتقياء ! وإنما جمـال الرجـل ومالـه ونسبه خلقه .

وقال عليه السلام فى جانب الزوجة :" تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالهـا ولحـسبها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك " فذكر فى جانب المرأة المـال والجمـال والحـسب والنسب والدين إذ العرق دساس وغالباً يترع الولد من جهة أمه وكل ذلك مهم إلا أنه عليه السلام حض على مراعاة الدين فى ذلك .

والناس فى الإسلام بأرواحهم وأديانهم وليس بأنفسهم وأبدانهم ، والـضمان الوحيـد الذى يضمن بقاء الحياة الزوجية هو وفاء كل من الطرفين بما التزم به للآخر من محبة وإخلاص ومساعدة فى شتى مناحى الحياة إذ الزوجان أقرب إلى بعضهما حتى من أبويهما وأبنائهما !

ثم قال :

ويـرى الـزوج زوجـه كـشريك لـيس نـداً لكنـه نـدّاء

يرى كل من الزوجين زوجه فى الإسلام شريكاً له فى كل شيء فى الحياة وإلا لم يكـن زوجاً فإن الزواج يعنى فى اللغة الواحد من الاثنين ولا يتفاوت الأثنان بل كل منهما ضرورى للآخر ليحصل العدد الزوجي فيشارك كل من الزوجين الآخر فى فرحه وحزنه وتعبه وراحته

Scanné avec CamScanner

وسعادته وشقائه وإلا لم يكن زوجاً قال تعالى :" أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن " .

والشراكة الموجودة بين الزوجين هى شراكة تقاسم الأدوار لا شراكة التسوية ، فـــإن الله تعالى خلق كل منهما على هيئة معينة وعلى صفة مخصوصة ومن الأعمال ما يناسب كل واحد منهما ومنها ما يناسب أحد الزوجين دون الآخر ، فيتحمل الرجل فى الإســـلام أعبـــاء الخارج كلها من جلب الطعام والشراب والملابس والعلاج أو أي شيء يحتاج إليه لأن ذلـــك مناسب للرجولة ، بينما تتحمل الأنثى أعباء الداخل كلها من طبخ طعـــام وتنظيـــف بيـــت واعتناء بالأولاد وتربية وغيرها وتلك قسمة سليمة وهى فطرة الله التى فطر الناس عليهـــا لا تبديل لخلق الله ، وأما إذا تدخل أحدهما فى مهام الآخر أو حاول سلبه منه كأن تتطلعت الأنثى وحاولت أن تقوم بدور جلب القوت إلى البيت وحاول الرجل إرضاع الصغار وحضانتهم فإن ذلك مدعاة لكل فساد قال تعالى فى أبينا آدم وحواء :" فلا يخرجنكم من الجنة فتشقى " ولم يقل فتشقيا إذ الشقاء كله على الرجل إذ هو الذى يتحمل الأعباء والبون شاسع بين جلـــب الطعام من حر الشمس بكد اليمين وعرق الجبين وبين طبخه فى ظل المطبخ !

واعلم أن اعتبار كل من الزوجين الآخر شريكاً له لا يعنى أن ينظر إلى الآخر كنـــدّ أو ضدّ فإن ذلك نقمة وبلاء فلو حاول أحدهما أن يبارى الآخر أو يجاريه في إنجازاتـــه أو يجعـــل نفسه فى مستواه فإن ذلك مدعاة لكل فساد لأن الله سبحانه وتعالى لم يسوّ بين الناس فى ذلك بل يعتبر كل من الزوجين إنجازات الآخر إنجازاً ونجاحاً له هو إذ هما شريكان فى الحياة .

وأما إن كان كل من الزوجين حكيماً فإنه يرى زوجه نداً ومنافسا للآخرين ويحاول أن لا يتفوق أحد على زوجه كائناً من كان لأن تفوقهم على زوجه تفوق عليه هو ، وإنما يساعد الزوج زوجه ويسعى فى كونه أفضل من الآخرين لان ذلك شرف ورفعة لهما معاً .

ثم قال :

كـــل زوج لـــه حقـــوق وفـــضل وعليـــــه بمثـــــل ذاك الجـــــزاء

Scanné avec CamScanner

لكل من الزوجين فى الاسلام حقوقه وواجباته وعليه مثل ذلك للطرف الآخر قال تعالى : " ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف " فحق الزوجة على الزوج فى الإسلام خمس يجمعها كلمة "النفقة " وهى المأكل ، والمشرب ، والمسكن ، والملبس ، والمنكح ، فكل ذلك على الزوج لزوجته وبدون مقابل وأهم من كل ذلك الاحترام المتبادل قال تعالى :" فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف " وقال عليه السلام :" استوصوا بالنساء خيراً ".وقال عليه السلام :" خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى " .

وأما حق الزوج على الزوجة فشيء واحد وهى الطاعة فى غير معصية لا يجب للرجل على المرأة أي شيء غير ذلك والطاعة باب واسع منها التزين له وعدم مخالفته فى أوامره والمحافظة على نفسها فى غيابه وعدم إيذائه فى ماله أو بيته أو ولده .

واعلم أن طاعة الزوجة لزوجها هى سر الأمر كله وهى شرف لها فلابد أن يكون لسفينة الحياة قائد حكيم وقد جعل الله ذلك فى أيدى الأزواج لأسباب يطول ذكرها قال تعالى :" الرجال قوامون على النساء " وقال عليه السلام :" إذا صلت المرأة خمسها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت الجنة " فالاحترام يكون من قبل الزوج وتقابل ذلك الزوجة بالطاعة ، وقد وهم فى ذلك الكثيرون ممن ذهبوا إلى فهم خاطئ لقوله تعالى :" ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف " حيث طلبوا من الرجل أن يطيع زوجته وإنما ذلك سفه منه وفساد كبير .

ثم قال :

يتمنى لزوجه كل زوج أن يرى السعد صبحه والمساء

مما يساعد على نجاح الزواج أن يسعى كل من الزوجين فيما يسعد الآخر فإن كلاً منهما أدرى بما يحبه الآخر وما لا يحبه وما يرضى به وما لا يرضى به ، فيبادر كل منهما إلى ما يرضي الآخر مادام خيراً ويجتنب ما يسوءه ما دام شراً ويجتهد كل منهما أن لا يرى الآخر حزيناً فى حياته لأى شيء وخاصة من قبله هو .

Scanné avec CamScanner

حدثنى أبي وهو ثقة صدوق أن أمي عاشت معه أربعون عاماً وماتت ولم تحزن قلبـــه فى حياته ولا مرة واحدة والحمد لله كثيراً ، وما نزل عليهما ضيفه فأكرمه الوالد وأحسن ضيافته إلا شكرته على ذلك ودعت له بالتوفيق رحمها الله رحمة واسعة ، وتوفيت وأنا صغير فى حدود العاشرة من عمرى إلا أنها هى التى حببت إلي طلب العلم وأوصتنى بذلك وكانت تناديني من بين سائر أولادها بالشيخ وذلك كما حكي لي مذ أنا رضيع والحمد لله كثيراً .

وعني أحدث فقد زارني فى جمهورية مصر العربية الوالـــد الكـــريم فى رحلـــة عـــلاج فاستضافنا بعض الفضلاء فى مصر وهو الأستاذ الجليل المهندس / فيصل أحمد أحمد شـــراره فى بيته وهو رجل مشهور بالكرم والضيافة وعليه نزلت وفي بيته حللت أيـــام دراســـتى كلـــها بالأزهر .

فاتفق أن عزمنا أهل شراره في مأدبة غداء وذبحوا لنا كعادتهم فى إكـــرام الـــضيوف واستقبلونا استقبالاً حاراً ، وبعدما رحب الحاج فيصل بالوالد أثنى الحاج فيصل عليه كـــثيراً وشكر له فى زيارته وحسن تربيته لأولاده.

ثم انصرفنا بعد غداء حافل بالمحبة والاحترام المتبادل ، ولما رجعنـــا إلى البيـــت لـــيلاً لاحظت تغيراً فى مزاج الوالد الكريم وانقباضاً منه فى الحديث فى تلك الليلة وحدها دون سائر الليالى التى قضيناها معاً ، فسألته عن سر انقباضه وظننت أنه قد حدث شيء فقال لي : إنـــنى اليوم حزنت جداً عندما أثنى عليّ مضيفك الحاج فيصل ووصفني بالكرم والذي احزننى هـــو أنني لا اجيد اللهجة المصرية وكنت أريد أن أذكر له أنني وإن كنت كريماً إلا أن أم ابـــراهيم هى الكريمة حقيقة فما نزل علينا ضيف من الضيوف وأكرمناه إلا وشكرتنى على ذلك رحمها الله رحمة واسعة ، فكنت أريد أن أثنى عليها أمام الجميع إلا أننى لم أتمكن من ذلك لعدم تمكني من اللهجة المصرية وذلك هو السبب فى تغير مزاجي .

ثم قال :

يتغاضـــى عـــن هفـــوه ويـــرى أن لرضى الـــزوج كـــل شـــيء فـــداء

Scanné avec CamScanner

من الأسباب المساعدة فى نجاح الزواج أن يتغاضى كل منهما عن أخطـــاء الآخـــر إذ الإنسان غير معصوم من الخطأ ، فيتحمل كل منهما هفوات شريكه فى الحياة ولا يمنعه ذلـــك من تنبيهه على ذلك برفق ولين كما يعتبر من الأسباب المهمة فى ذلك أن يضحى كل منـــهما بكل شيء فى سبيل كسب رضى شريك حياته إذ لو رضى كل العالمين عن الزوجين ولم يرضى أحدهما عن الآخر لم يعيشا بسلام واطمئنان .

ثم قال :

ونجـــاح الـــزواج بعـــد ارتبـــاط أن بقـــــدر المـــــشقة الإعفـــــاء

وأما السر الأكبر فى نجاح الزواج فإنه كامن فى إعفاء كل منهما للآخر ومعافاته عما لا يطيق من مأكل أو ملبس أو منكح أو أى مطلب فلا يكلف أحد الزوجين الآخر مالا يطيقـــه فلا تطلب الأنثى من زوجها جلب طعام أو لباس أو سكن أو حلل لا قبل له بها ، ولا يطلب الرجل من زوجته إعداد طعام أو شراب لا قبل لها به فإن ذلك بداية المشاكل كلها .

والأهم من كل ذلك أن لا يمتنع أحدهما عن الآخر فى حق المضجع كما لا يكـــره أحدهما الآخر على ذلك فى وقت تعبه أو مرضه أو حزنه ، وعلى كل منهما أن يمكن للآخـــر من نفسه بقدر المستطاع بلا إفراط ولا تفريط قال عليه السلام :" أيما امرأة امتنعـــت علـــى زوجها باتت الملائكة تلعنها حتى تصبح " .

إلا أن الزوجين يختلفان فى ذلك فقد خلق الله الرجل وهو لا يمل النساء إلا أن النساء تمله فى فترات معينة فعلى الرجل أن يراعى حال المرأة فى ذلك لأنها ضعيفة فى بنيتها شـــديدة التقلب فى أطوارها وبالغة التأثر بما حولها قال عليه السلام :" استمتعوا بهن على عوج " .

وإن مما ينبغى أن يعفي كل من الزوجين الآخر عنه تلك البدع والمنكرات والعـــادات والتقاليد السيئة التى ما انزل الله بها من سلطان والتى لا تتفق مع سنة الإسلام من المغـــالاة فى

Scanné avec CamScanner

المهور ووضع العقبات والضمانات التى تنبئ عن عدم الثقة بين الزوجين ولا نجاح لأى زواج طالما لم يضمنه الثقة المتبادلة بين الطرفين .

وإن تلك العادات والبدع سنن جاهلية نهى النبى عليه الصلاة والسلام عنها عندما قال :" أقلهن مهراً أعظمهن بركة " وقد فرض علينا الكثير من ذلك فقبلناها وفاءً لأحبابنا لأنهن قبلن بنا خطاباً وشركاء فى الحياة !

ثم قال :

وفساد الزواج يوم تراه ليس للسر بينهم إخفاء

يبدأ فساد الزواج غالباً بإفشاء أحد الزوجين لسر الآخر لأن ذلك خيانة كبرى وجريمة لا تغتفر ! فإن الكرم والوفاء والاحترام المتبادل يقتضى ان لا يعرف أحد خارج البيت ما في البيت إلا أهله فقط ، إلا أنه وللأسف الشديد ترى أبوي الزوجين بعد تزاوج أبنائهما يريدان أن يديرا حياة أبنائهما ويعيشا بيت زوجية أبنائهم وذلك بعدما شب الأولاد عن الطوق ودخلوا فى حياة جديدة مختلفة تماماً عن حياة الأبناء فى بيوت أبائهم وذلك فساد كبير .

وكثيراً ما ترى والدة الزوج أو الزوجة تنزل نفسها منزلة ابنها أو ابنتها وتريد ان تأمر وتنهى وترفع وتضع فى غير بيت زوجها وذلك خطأ كبير وجل الأنكحة اليوم تفسد بذلك وقد رأيت الكثير والكثير من ذلك فى حياتى وهو شيء لا ينبغى .

فالواجب على أباء الزوجين وأقاربهما بعد ارتباطهما أن يتمنوا لهما كل توفيق ويدعوا لهما بالنجاح والسعادة في مسيرة الحياة ويبتعدا كل البعد عن حياتهما الشخصية لأن اسمهما قبل الزواج الأبناء وأما بعد الزواج فاسمهما الأباء !

وقد صور القرآن الكريم جانباً من الحياة الزوجية فى بيت النبوة لإرشاد المسلمين إلى ما ينفع من ذلك وتنبهه على ما يضر قال تعالى :" وإذ أسر النبى إلى بعض ازواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال

Scanné avec CamScanner

نبأنى العليم الخبير ". فقد أسر النبى عليه الصلاة والسلام إلى بعض ازواجه حديثاً فأفشته فهم بطلاقها فنهاه الله عن ذلك إلا أنه سبحانه وبخ الزوجة ومن أفشت السر إليها توبيخاً شديداً قال تعالى :" إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ".

Scanné avec CamScanner

الباب الثانى عشر

فى جمال الحب

زينة الزواج وجماله الحب ! قال تعالى : " ومن رحمته أن خلق لكم مـــن أنفـــسكم أزواجـــاً لتسكونوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة " .

[والحب هو سر الجمال كله] إذ كلما رأى الناس جميلاً أحبوه ! وخير الزواج ما كان مبنياً على الحب الصادق لأنه باق ببقائه ، والحب الصادق لا يزول ولا يتغير ولا يتبدل ، وإنما يتغير حب المصالح والأهواء والشهوات ، وأما الحب الصادق فهو ثابت يزداد كل يوم جمالاً وبهاءاً واشراقاً .

قال ابن حزم :

والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء

هذا وقد أثبت الله تعالى لنفسه حباً فقال سبحانه :" فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونـــه " ووصف النبى عليه الصلاة والسلام نفسه بالحب فقال : " حبب إلي مـــن دنيـــاكم ثـــلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة " ووصف الله به عباده المؤمنين فقال :" والذين آمنوا أشد حباً لله " وقال النبى عليه الصلاة والسلام : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحـــب إليه " .

فالحب مشروع وهو من مبادئ الإسلام السامية بل هو من شروط الإيمان إذ لا يؤمن المـــؤمن حتى يكون فيه جزء من الحب قال عليه الصلاة والسلام :" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

Scanné avec CamScanner

وإنما الذى ينهى عنه فى الاسلام هو الهوى ، وبينه وبين الحب بون شاسع إذ الهوى هو اتبـــاع شهوات النفس وسبيل الشيطان.

وأما الحب الصادق فهو سبيل المؤمنين جميعاً ، ولا يسعنى هنا إلا أن أعطى القـــوس باريهـــا وأسكن البيت بانيها فأحيل الأحباب جميعاً إلى "طوق الحمام" التى لم تسمح قريحـــة فى العـــالم بمثالها ولا نسجت بديهة على منوالها ، وإنها لكفيلة للدلالة على جمال الإسلام وشيء من زينته ، كما أنها كفيلة بالتبيان والإفصاح عن مكانة ذلك العالم الأوحد شمس الأئمة وتاج العـــارفين أبي محمد بن حزم رحمه الله تعالى .

قال الناظم :

وأرى الحب فى الحب فى القلوب حبوباً زرعـــت فيـــه حـــين كـــان النـــشاء

اختلف العلماء فى حقيقة الحب ما هو ؟ وذهب أبو محمد بن حزم أنه :" اتصال بـــين الأرواح في جوهرها الرفيع " ودليله فى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :" الأرواح جنود مجنـــدة مـــا تعارف ائتلف وما تناكر منها اختلف " وفي ذلك ربط للعالم السفلي بالعلوي .

وأما حقيقة الحب فلا يعلمه إلا الخالق سبحانه وتعالى إذ هو كامن فى النفوس ككمون الزبدة فى اللبن إلى أن يحرك فتعلو أوككمون النبت فى الأرض إلى أن تجود عليها الـــسماء فتنبـــت وتعطى كل ثمر جميل ! والمطر الذى يمطر على أراضى القلوب الجدبة فتنبت فيها حبوب الزينة والجمال هو التعارف ، فلا يحب الإنسان مالا يعرفه أبداً .

ثم قال :

تتغـــــذى برؤيـــــة ثم تنمـــــو بصبا الوصـــل حيـــث كـــان اللقـــاء

تلك الزبدة الكامنة فى اللبن والحبة الكامنة فى قلوب الأحباب تظهر وتنبت بالتعارف ، إلا أنها تحتاج إلى ما يغذيها ويمدها بماء الحياة لتستمر وتزيد فى نموها ، وذلك الماء الذى يمطرها هـــو الرؤية ، فقد يحب الإنسان من عرفه ولم يره حتى إذا ما رآه ازداد حباً له كلما رآه والأصـــل

Scanné avec CamScanner

فى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام للذى استشاره فى خطبة امرأة " قال عليه السلام ": انظر إليها فإنه أقرب لأن يؤدم بينكما" فأمر النبى عليه الصلاة والسلام ألا يكتفي الخاطب بمجـــرد المعرفة بل يباح له بنظر الشرع الثاقب أن ينظر إليها لأن ذلك أدعى للمودة ، ومنـــه أخـــذ الفقهاء جواز النظر للمخطوبة .

واستدل بن حزم رحمه الله تعالى بالأثر المذكور على جواز عشق الأجنبية لكن بقصد الزواج بها فقط ، ودليله فى ذلك أن الخاطب الذى أمره المصطفى بالنظر ورجى له زيادة الحب بتلـــك النظرة لم يكن تزوج بعد لكن لما كان هدفه سامياً وهو الارتباط الشرعى بالمخطوبة أباح لـــه النبى المصطفى ذلك عليه السلام .

فجواز عشق الأجنبية بقصد الزواج بها مشروع والنص صريح فى ذلك إلا ان العالم ابن القيم رحمه الله سخر من ذلك ورأى ذلك شذوذاً وادعى أن الذى جر ذلك إلى ابن حزم هو سماعه للغناء الذى يقول أهل الظاهر بجوازه :" سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتكلم بهذا هذا بهتـــان عظيم " .

وإن كنا معاشر أهل الظاهر نعرف للعلماء قدرهم إلا أننا قد نجازى بالإساءة إساءة وبالمعنى الأدق قد ندافع عن أنفسنا فنقول :

سخر ابن القيم من ذلك لبعده عن تلك المعانى الجميلة ولعدم فهمه للمقصود منها في الحقيقة وقد أول كلام ابن حزم رحمه الله تعالى غير تأويله فهو لم يقل بجواز عشق الأجنبيات للشهوات وإنما قيده بقصد الزواج بها والنص صريح فى ذلك وإلا فقل لي بربك كيف يتزوج رجل امرأة وهو لم يحبها قبل الزواج أو كيف يخطبها ، فالحب بقصد الزواج مشروع وقد أمر به المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله :" انظر إليها فإنها أقرب أن يؤدم بينكما " .

Scanné avec CamScanner

والعجب أن ابن القيم الذى يقول هذا الكلام هو الذى انتحل طوق الحمامة واستبدل كلماتها بأخرى كجل مؤلفاته وسماها روضة المحبين وهو لا يعرف من ذلك الباب إلا اسمه وإنما الحب لأصحابها فى مروج الأندلس لا في جبال الشام ! وليس هذا عشك فادرجي .

ثم إن صبا الحب الذى تميل به يمنة ويسرة وتزيده يوماً بعد يوم هو اللقاء فكلما التقى الحبيبان ازداد الحب بينهما ولذلك أثنى الله تعالى على المتحابين فيه المتزاورين من أجله قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل :" وجبت جنتى للمتزاورين في " وقال عليه السلام :" ما من مسلمين يتزاوران فى الله إلا غفر الله لهما قبل أن يفترقا " لأن اللقاء يزيد المحبة بينهما فى الله سبحانه .

ثم قال :

إنما الحب رقة وجمال نسجته بقلبها الأصدقاء

الحب رقة وجمال ورأقة وكمال يتحلى بها ذو النفوس الكريمة السليمة فى فطرتها ، إذ خلق الله الإنسان محباً لا مبغضاً ، ولذلك يميل الطفل إلى كل ما حوله حباً له ويصبو إلى كل شيء فسمته العرب صبياً ، وللصبابة حظ من ذلك حيث يصبو كل من الحبيبين لحبيبه ويحيا بحياته ، وإنما تلك العلاقة الحميمة نسجتها الأحباب بقلوب الحب وجعلتها تاجاً فى جبين الجمال فكلما رأوا جميلاً أحبوه ، ولولا الحب لما رأينا شيئاً جميلاً فى الكون إذ الله سبحانه وتعالى لا يزين مالا يحبه وإنما حبه لخلقه هو الذى زين الخلائق بشيء من جماله روى البخارى وغيره عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قوله :" إن الله جميل يحب الجمال " .

ثم قال :

أجمل الحب فى الذوات ويبقى زينة الحب بيننا الإهداء

الحب أنواع كثيرة وشعاب متعددة ، وأرفعها وأنفعها الحب فى الله إذ هو الذى بسببه يظل أحبابه بظل العرش يوم لا ظل إلا ظله قال تعالى :" الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين " وقال عليه السلام :" سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله " ومنهم رجلان تحابا

Scanné avec CamScanner

فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ، نسأل الله سبحانه وتعالى وأن يجعلنا وأحبابنا جميعاً كذلك .

ومن أنواع الحب حب المصلحة وهو أسوأها إذ يتحول إلى عداوة شديدة بعد انتهاء المصلحة وفواتها ، ثم تبدي النافقاء ضبابها .

ومن الحب حب الذوات وهو أدومها إذ الذوات لا تتغير ، ومنها حب الأعراض وهو جميل إلا أنه يتغير وينقص أو يزول بزوال تلك الأعراض .

ومن الحب حب الشهوة وهو المسمى بالهوى وقد نهى الإسلام عنه بقوله تعالى: " فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى " .

هذاومما يزيد المحبة بين الناس ويقرر مبادءه ويزيده استقراراً الهدايا المتبادلة بين المتحابين قال عليه الصلاة والسلام :" تهادوا تحابوا "

[والصداقة هى الصلة والارتباط الحاصل بين الأحباب] وسمى صداقة لصدق كل من المتصادقين لصديقه ، وهى أخص من المحبة إذ الحب لا يستلزم ارتباطاً بين الأحباب فقد يحب الإنسان من مات إلا أنه لا يصادق إلا الأحياء .

وهذه المعانى الجميلة التى هى الأخوة والصداقة والمحبة هى من خصائص الناس إذ سائر الكائنات لا أخوة بينها إلا بقدر انفصال المولود منها عن أمه ، ولا صداقة بينها ما دامت كثيرة ، والغريب ان الحيوان إذا كان اثنين أو ثلاثة منها فى مكان واحد حن بعضها لبعض وناح بعضها لفراق البعض الآخر ، ولا تعرف الحيوانات من الحب إلا حب الشهوة الذى ينقضى بعض قضاء الوطرغالبا إذ لا تلبس إلا قليلاً حتى تتناطح على المأكل والمشرب ،وبعض الكائنات تعرف الحب كالطيور مثلاً ، وأما الإنسان الكامل فهو الذى يآخى ويصادق ويحب مدى الحياة .

Scanné avec CamScanner

ثم قال :

وأضـــر الأمـــور بالحـــب فيـــه أن يـــرى المنـــع حاكمـــاً والعطـــاء

مما يضر بالحب بين الأحباب أن يحكم الإحسان والإساءة فيه ويحول العطاء والمنع بين المتحابين ، ويتخذ ذلك معياراً وميزاناً للمحبة ، فالمحبة الصادقة لا تعرف شيئاً من ذلك ، بل المحب محب سواء أحسن إليه أو أسيئ إليه وسواء أعطى أو منع ، وقديماً قالوا إن ضابط المحبة فى الله " هو كل حب لا يزيد بالعطاء ولا ينقص بالجفاء " قال عليه السلام :" من أحـــب لله وأبغـــض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل عرى الإيمان "

ثم قال

إن أسمـــــاء لم تـــــذر في فـــــؤادي أي حـــــب إلا وفيـــــه غـــــاء

ســـقت النجـــد والوهـــاد فأضـــحى كـــل واد يـــسيل فيـــه المـــاء

مـــلأ القلـــب حبـــها واســـتقرت في مكـــان مـــن دونـــه العنقـــاء

إن للحـــب فى القلـــوب محـــلاً لم ينلـــه بوصـــفهم شـــعراء

أحـــسد الـــشمس أن تـــراك بعـــين وأرى أن يـــذاد عنـــك الهـــواء

لا تـــسيئ بي الظنـــون فـــإني مـــن كـــريم آبـــاؤه كرمـــاء

لم تلـــدني لئيمـــة ونمـــتني لـــذرى المجـــد همـــة عليـــاء

وضوح هذه الأبيات يغني عن شرحها ولم يبقى إلا أن نقول : لكـــل عـــضو مـــن الحـــواس والجوارح وظيفته ، فوظيفة العينان النظر ووظيفة الأذنان السمع ووظيفـــة اليـــدان اللمـــس وهكذا ، وأما وظيفة أشرف الأعضاء كلها وهو القلب فالحب ! قال تعالى :" يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله " .

وإذا كان المرء لا يخلو من الحب أبداً فإن أحب الخلائق إلي هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته إذ هو أجمل الكائنات خلقاً وخلقاً وأشرفهم ذاتاً ومعنى ، ودعوته هـــى الـــتى أعادت للكون شيئاً من جماله وكسته حللاً من زينته نسأل الله ســـبحانه وتعـــالى أن يجعلنـــا

Scanné avec CamScanner

وأحبابناً جميعاً من المتمسكين بسنته والدعاة إليها وأن يحيينا على ذلك ويميتنا عليه ويحشرنا معه ويدخلنا مدخله ويسقينا بيده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبداً .

وأحب الخلائق الي بعده صلى الله عليه وآله وسلم الإمام العالم والشيخ المجاهد أبو محمد بن حزم واجتهاده وسعة علمه وذكاؤه وبعد نظره نسأل الله سبحانه وتعالى أن يغفر له ويرحمه ويجزيه عن الإسلام والمسلمين خيراً ويدخلنا برحمته وإياه فى عباده الصالحين .

واعلم أن حسد الحاسدين هو الذى شوه صورته وسمعته وهو برئ من كل ذلك رحمه الله . ويستحق أولئك الأعداء الذين ناصبوه العداء بغير حق يستحقون كل ما قاله فيهم وأكثر من ذلك إذ هم الذين حاربوه وحاصروه وأحرقوا كتبه حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق من أتباع المذاهب لا أئمتها رضى الله عنهم فإنهم أحبابه وهو حبيبهم ومن قرأ المحلى فهم شيئاً من ذلك .

وأحب الخلق إلي بعده رحمه الله السلطان الناصر لدين الله والفاتح الكاسر لأعداء الله ولي الله الإمام القطب العالم العلامة الحاج عمر الفوتي وجهاده وإصلاحه فى الأرض وسيرته وعجائبه ونوادره وتقواه نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكتبها فى ميزان حسناته ويحشرنا معه مع النبين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

ومن أحببناهم من الناس غير هؤلاء فإن محبته تابعة لمحبتهم ومندرجة فى مودتهم إذ من لم يحبهم لا نحبه ولو كان من الأباء والأبناء ، قال تعالى :" لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أباءهم أو أبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهاء خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضو عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون " نسأل الله سبحانه وتعالى بمنه وكرمه أن يجعلنا وأحبابنا جميعاً منهم .

وقال عليه السلام :" من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل عرى الإيمان"

Scanné avec CamScanner

وأما أحب الأشياء إلينا من حيث الحياة الدنيا فإنها الحيوانات عموماً والبقرة خصوصاً وخاصة عجلها الصغير وخواره الجميل الناعم ولونه الصافى ، قال تعالى :" ولكم فيها جمـــال حـــين تريحون وحيث تسرحون " واعلم أن الثروة الحيوانية لو أحسنت إدارتها تكفى عن كل شيء من سائر متاع الدنيا قال تعالى :" وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعـــنكم ويوم إقامتكم ومن اصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين " وقال تعالى :" وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة منها تأكلون " وقال تعالى :" فى جمال البقرة بالذات :" إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين " !!!!

وأحب الأشياء إلينا بعدها الموسيقى عموماً و العود خصوصاً وبصفة أخص العود القومي الذى ينوه بمآثر الأباء ومفاخر الأجداد رحمهم الله جميعاً ، واعلم أن العود والغناء ليسا حراماً طالما لم يشبهما منكرات ومثلها فى ذلك النشيد الجميل .

وأحب الأشياء إلينا بعدهما الرياضة عموماً وكرة القدم خصوصاً ، إلا أن ظروف الاشتغال بالعلم والتعليم صرفتنا عن هذه الثلاثة .

Scanné avec CamScanner

خاتمة

فى عقد الاتفاق بين أبى محمد وأم البنين

وتعـــالي لعقـــد خـــير زواج ... لم يـــذق قـــط طعمـــه الـــسعداء

قـــد جعلنـــا الوفـــاء فيـــه شـــعاراً ... يـــوم كـــان الإعـــراب ثم البنـــاء

وتـــوالى مـــن بيننـــا حركـــات ... ظـــاهرات وبعـــضهن خفـــاء

وجزمنـــا فالعقـــد فيـــه ارتفـــاع ... عـــن أمـــور والنـــصب فيـــه عنـــاء

وخفـــضنا ومالنـــا أي كـــسر ... وســـكنا فى الـــضم وهـــو العـــلاء

وانعطفنـــا فبـــان منـــا اتـــساق ... ونعتنـــا فى الحـــب حـــاء وبـــاء

مثلـــها يفـــتح النـــصيحة للنـــا ... س كـــــرأي ودونهـــــا آراء

هذه الخاتمة المباركة هى عقد الاتفاق المبارك بين أبي محمد وأم البنين ، واخترنـــا أن تكـــون بالألغاز النحوية واللطائف اللغوية لأنه الفن الذى تجيده وتفهمه أم البنين أكثر مـــن غـــيره ، ويبقى مضمون ذلك الاتفاق سراً بيننا وبينها إذ من شيم أولى الألباب المحافظـــة علـــى ســـر الأحباب ! دون أن يكون ذلك كتماً للعلم .

وتمت الزينة بعون الله تعالى يوم الزينة فى عيد الفطر عام واحد وثلاثين وأربعمائة وألف مـــن الهجرة النبوية الشريفة بعد صلاة العيد فى يوم الجمعة وقبيل العصر حال كوني مزيناً بأحـــسن ملابسي ومحاطاً بأحبابي وأصحابي وعشيرتى وجيرتي في بيت أبي ، وقد ختمت له القرآن الكريم كله فى صلاة التراويح والتهجد وصليت به عيد الفطر وذبحنا ثلاثة من الخرفان احتفالاً بعيـــد الإسلام عقيب شعيرة الصيام ، فدعا الله لنا الوالد الكريم بخير كثير تقبل الله منا ومنه وأحسن له وله العاقبة والختام آمين .

وإننا نعتبر هذه الزينة باكورة وجنىّ طيبة من ثمار تلك الدعوات المباركة ، ولم يبق إلا أن نحمد الله تعالى على نعمة شرح الزينة التى بدأت بأصل الجمال كله وزينة الوجود وهو الله ســـبحانه وتعالى وختمت بالصلاة على سر الجمال والزينة جميعاً وهي محبة رسول الله صلى الله عليه وآله

Scanné avec CamScanner

وسلم زين الوجود وعين الكمال ، وقد تضمنت بحق كل ما هو جميل غفر الله لنا ما كان منها خطأ وتقبل منا ما كان صواباً .

اللهم جملنا بالعلم وزينا بالحلم وأكرمنا بالتقوى وغمدنا وأحبابنا جميعاً برحمتك فى الدين والدنيا والآخرة واجعلنا من أوليائك الصالحين وعبادك المقربين وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الخميس الموافق ٢٠١٠/١١/٤ الموافق ٢٧ ذى القعدة ١٤٣١ فى مكتبة / خالد إسماعيل

Scanné avec CamScanner